« السنة الثانية عشرة »

العدد الأول

(مارس سنة ١٩٤٦ — ربيع الثانى سنة ١٣٦٥)

صحيفة دار العلوم

ظهرت ١٩٣٤ م

تصدرها جماعة دار العلوم
كل ثلاثة أشهر

المدير
محمد نجيب حشاد بك

رئيس التحرير
محمد على مصطفى

المراسلات الخاصة بالتحرير ترسل باسم رئيس التحرير
بنادى دار العلوم ٧٧ شارع الملكة نازلى

الاشتراكات والحوالات المالية
ترسل باسم أمين الصندوق

السباعى بيومى
الاستاذ بدار العلوم
مكتب بريد الدواوين

الاشتراك السنوى

فى القطر المصرى	٢٠ قرشاً
خارج القطر	٣٠ قرشاً
ثمن العدد	٥ قروش

مطبعة العلوم بشارع الخليج ١٦٢

"إن باحثا مدققا لو أراد أن يعرف أين تموت اللغة العربية وأين تحيا، لوجدها تموت في كل مكان وتحيا في دار العلوم"

الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

بسم الله الرحمن الرحيم

الأخلاق فى شعر شوقى

للأستاذ على النجدى ناصف

المدرس بدار العلوم

يلقب شوقى (رحمه الله) بشاعر الأخلاق ، كما يلقب حافظ إبراهيم بشاعر الوطنية ، والمتنبى بشاعر الحكمة ، وابن أبى ربيعة بشاعر الغزل ، وكما يلقب آخرون بألقاب أخر .

والمفهوم أن هؤلاء وأولئك لم يمنحوا ألقابهم عبثاً ، ولم يؤتوها عفواً ، ولكن لأنهم صنعوا للأغراض الشعرية التى اشتهروا بها وأضيفوا إليها مالم يصنع أحد من الشعراء .

فهل ترى شوقى وهو الذى يعنينا الآن - قد صنع للأخلاق مالم يصنع الشعراء ، ووصل شعره فيها إلى مالم يصل إليه شعر سواه ؛ هذا ما أردنا بيانه وتفصيل الحديث عنه فى هذا المقال .

ولا بد لكى نبلغ غايتنا من أقصد طرقها وأبعدها من الالتواء والشطط أن نقيم البحث عن دعائمه الخمس الآتية :

«١» — الخلق الفاضل كما يصوره شوقى .

«٢» — مبلغ تصويره له من الفن والفلسفة .

«٣» — موازنة بينه وبين غيره فى ذلك .

«٤» — الرأى فى سبب تلقيبه بشاعر الأخلاق .

«٥» — نقد وتحليل .

(١)

أما شعر شوقى فى الخلق الفاضل فها هو ذا :

قال من نهج البردة :

صلاح أمرك للأخلاق مرجعه فقوم النفس بالأخلاق تستقم

ومن قصيدة الأزهر :

زمن المخاوف كان فيه جنابهم حرم الأمان وكان ظلهم الذرا

من كل بحر فى الشريعة زاخر ويريكه الخلق العظيم غضنفرا

ومن قصيدة تكريم واصف غالى باشا :

إنما واصف بناء من الأخـ ـلاق فى دولة المشارق عالى

ومن قصيدة فى تهنئة والى مصر المرحوم عباس حلمى ببعض الأعياد .

والصدق أرفع ما اهتز الملوك له وخير ما عود ابنا فى الحياة أب

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ومن قصيدة فى استقبال طيارين عثمانيين :

إذا المقاتل من أخلاقهم سلمت فكل شىء على آثارها سلما

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن تولت مضوا فى اثرها قدما

ومن قصيدة العلم والتعليم :

وإذا أصيب القوم فى أخلاقهم فأقم عليهم مأتما وعويلا

ومن قصيدة ذكرى المولد :

بنيت لهم من الأخلاق ركنا فخانوا الركن فانهدم اضطرابا

وكان جنابهم فيها مهيبا وللأخلاق أجدر أن تهابا

فلولاها لساوى الذئب ليثا وساوى الصارم الماضى قرابا

ومن قصيدة انتصار الأتراك فى الحرب والسياسة

وما السلاح لقوم كل عدتهم حتى يكونوا من الأخلاق فى أهب
لو كان فى الناب دون الخلق منبهة تساوت الاسد والذؤبان فى الرتب

ومن النشيد القومى :

على الاخلاق خطوا الملك وابنوا فليس وراءها للعز ركن

ومن قصيدته بعد المنفى :

وليس بعامر بنيان قوم إذا كانت نفوسهم خرابا

ومن قصيدة الاعتداء على المغفور له سعد زغلول .

وأين من الخلق حظ البلاد إذا قتل الشيب شبانها
وأين من الربح قسط الرجال إذا كان فى الخلق خسرانها

ومن قصيدة مملكة النحل :

مخلوقة ضعيفة من خلق مصوره
ياما أقل ملكها وما أجل خطره
قف سائل النحل به بأى عقل دبره
يجبك بالأخلاق وه ى كالعقول جوهره
تغنى قرى الأخلاق ما تغنى القوى المفكره
ويرفع الله بها من شاء حتى الحشرة

هذا مايقول شوقى عن صاحب الخلق الفاضل وشأنه فى الناس ، وعن الخلق الفاضل نفسه وأثره فى حياة الأفراد والجماعات ،

فأما صاحب الخلق الفاضل فما زادكما ترى — على أن شبهه بالاسد هيبة وبأسا وبالبناء العالى عظمة وإشرافا . وأما الخلق الفاضل فيشبهه بأساس البناء ، وسلاح المحارب وبالركن الركين ، والربح العظيم . وهى صور متقاربة تقل فيها الألوان ، وتضعف الفروق ، ويهون الخلاف . وماذا عسى أن يكون من فرق أو خلاف ذى بال بين أساس البناء وركنه . أو بينهما وبين البناء نفسه أو بين الاسد والمحارب فى شكته ؟

وليس يكفى فى الدفاع عن شوقى هنا أن يقال : ان لوحدة الموضوع دخلا فى ذلك ، لأنها قيدت خياله وحدت من تفكيره ، فهذا المدح فى الشعر العربى على قلة صفاته واشتباك بعضها ببعض — قد استطاع الشعراء أن يأتوا فيه لكل صفة بصور لاتكاد تحصى كثرة وتنوعا . بل لقد استطاع بعضهم أن يأتى فى مدح الممدوح الواحد بأروع الصور وأعجبها افتنانا ، دون أن يخرج من ذلك عن المعروف من صفاته وأعماله .

وشىء آخر نأخذه على تصوير شوقى للخلق الفاضل وصاحبه ؛ أنه قريب الفكرة شائع الخيال ، لافيه طرافة ولا ابتكار ، وليس له حظ من عمق الفلسفة وروعة الفن . ولعلى لا أتهم بالاسراف حين أذكر أن الدهماء لايشق عليهم أن يأتوا بمثله ، حتى فى مقاولات السوق ومناقلات السمر .

ومن العجيب بعد هذا أن يكرر شوقى بعض هذه الصور ، وأن يلح فى التكرار إلحاح المقل ، لا يكاد يظفر ببعض الوجد حتى يثقل على الناس بالحديث عنه والمكاثرة به .

استمع اليه يدير الأخلاق على معانى البناء وأحواله والبناء وأجزائه ، واعجب معى لهذه المعاودة المملة ، تكاد تستنفد صبر الحليم :

إنما واصف بناء من الأخـ	ـلاق فى دولة المشارق عال
بنيت لهم من الأخلاق ركنا	فخانوا الركن فانهدم اضطرابا
على الاخلاق خطوا الملك وابنوا	فليس وراءها للعز ركن
وليس بعامر بنيان قوم	إذا كانت نفوسهم خرابا

أما أسلوبه فيقوم تارة على الازجاء والعرض ، وتارة على الأمر والنهى ، وتندر فيه على الحالين البينات والأسباب . كأنه اسلوب الحقائق المقررة ، والأوليات المسلمة ، أو أسلوب الصرامة والاستبداد .

فمن الأول قوله :

إذا المقائل من أخلاقهم سلمت	فكل شىء على آثارها سلما
وإنما الأمم الأخلاق مابقيت	فان تولت مضوا فى إثرها قدما

ومن الآخر قوله :

على الأخلاق خطوا الملك وابنوا فليس وراءها للعز ركـن

وقوله .

صلاح أمرك للأخلاق مرجعه فقوم النفس بالاخلاق تستقم

وهى كما ترى أوامر جافة ، لانكاد نتلقاها حتى نذكر أوامر صالح بن عبد القدوس إذ يقول .

واخفض جناحك للاقارب كلهم بتذلل ، واسمح لهم ان أذنبوا

ويقول .

وزن الكلام اذا نطقت ولا تكن ثرثارة فى كل ناد تخطب

وأوامر عبد الله باشا فكرى إذ يقول .

إذا نام غر فى دجى الليل فاسهر فقم للمعالى والعوالى وشمر

ويقول .

وصارع إلى مارمت مادمت قادرا عليه وإن لم تبصر النجح فاصبر

بل ربما قادنا تداعى المعانى إلى ناحية أخرى . فذكرنا أوامر الارشادات الصحية التى يقرؤها الناس بظاهر كراسات التلاميذ

(٣)

وليس أفضل من الموازنة فى تقدير القيم وتحديد المراتب ، فلنعوض إذا أمثلة من تصوير الشعراء الاخرين لألوان من الاخلاق ، ولنتدبر طرائقهم فى التناول والتصفيح والعرض، لنرى غاية مايبلغون فى ذلك كله من درجات البراعة والاحسان

قال أبو تمام يدعو إلى المحافظة على حرية القول والعقيدة ، وإلى الصبر واحتمال المكروه فى سبيلها .

سأصرف وجهى عن بلاد غداها لسانى معقولا وقلبى مقفلا

وإن صريح الحزم والرأى لامرىء إذا بلغته الشمس أن يتحولا

وقال المتنبى ينصح للمغامرين بالطموح الى المثل الاعلى . ويهون عليهم الموت فى سبيله .

إذا غامرت فى شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت فى أمر حقير كطعم الموت فى أمر عظيم

وقال المعرى يوصى الاباء ألا يأمنوا الأبناء. وينصح لكل إنسان أن يتهم نفسه ويسىء بها الظن ،

احذر سليلك ، فالنار التى خرجت من زندها ان أصابت عوده احترقا
والنفس شر من الاعداء كلهم وإن خلت بك يوما فاحتر زفرقا
وآكل القوت لم يعدم له غصصا وشارب الماء لم يأمن به شرقا

وقال الطغرائى ينفر الأغنياء من الشح ، ويرغبهم فى السخاء والبذل :

ثراء الفتى من دون إنفاق ماله فسادو إنفاق الثراء نماؤه
فأنفق فإن العين يركد ماؤها فيأسن ، والمنزوح يعذب ماؤه

فنحن هنا تجاه مذاهب وآراء فى الأخلاق والحكمة ، يعرضها هؤلاء الشعراء ويدعون إليها ، لا بالأمر بها والنهى عن خلافها فقط ، ولكن بالاحتجاج وضرب الأمثال وإقامة البرهان أيضا ، فاذا هم فلاسفة فى شعرهم ، أو شعراء فى فلسفتهم ، وما من هذا شىء فى شعر شوقى يمكن أن نقرنه إلى هذه الآثار ، أو أن نعرضه معها فى منزلة سواء .

ولا بأس أن نقدم ها هنا قطعة لابن الرومى يصور فيها الحقد وأصحابه تصويرا فريدا ، لا أحسب أن شاعرا آخر سبقه إليه ، وبلغ فيه مبلغه من البراعة والافتنان فهلم ننظر فيها معا ، لنرى ماذا صنع لموضوعه وماذا قال فيه ، وأى فرق هناك بين فنه وفن شوقى على ما بينهما من اختلاف فى الموقف وتباين فى الموضوع .

قال ابن الرومى :

حقدت عليك ذنبا بعد ذنب ولو أحسنت كان الحقد شكرا
أديمى من أديم الأرض فاعلم أسىء الريع حين تسىء بذرا
ولم تك يالك الخيرات - أرض لتزرع خربقا فتريع برا
أؤدى إن فعلت الخير خيرا إليك ، وإن فعلت الشر شرا
ولست مكافئا بالنكر عرفا واست مكافئا بالعرف نكرا

يسمى الحقد عيبا وهو مدح كما يدعون حلو الحق مرا

فابن الرومى فى مقطعته هذه يدافع عن الحقد ، ويلتمس المعاذير للحاقدين ، وهو إذ يتكلف هذا وذاك إنما يدافع عن قضية خاسرة، المتهمون فيها جناة مذنبون سبق أن قال فيهم التهذيب الدينى والخلقى كلمته وقضى قضاءه المبرم . وقد ارتضى الناس حكمه عليهم ، واتخذوا منه مبدأ يؤمنون به ، ويورثونه أبناءهم ، ويجنبونهم الوقوع تحت طائلته ، وهم لهذا لا يقبلون عنه رجوعا ، ولا يحبون أن يسمعوا فيه خلافا أو يطيقون جدلا ، ومع ذلك لقد استطاع الشاعر بفنه الباهر، وبيانه الساحر وألمعيته التى لا تبارى أن يجعل من الحقد فى نفسه فضيلة بريئة ، بل ضحية شهيدة . وإنما جنى عليها الناس تسامحا أو ضلالا ، بما يكون فى لغتهم من توسع ، أو يقع فيها من ترخص التسمية بأسماء الأضداد فى بعض الأحيان ، فسموه عيبا وما هو بعيب ، كما يصفون الحق بالمرارة وما هو بمر . واستطاع كذلك أن يصور الحاقدين تصويرا فاضلا كريما ، ينفى عنهم العيب والذم ويجعلهم اهلا للكرامة والحمد، فهم ليسوا فى رأيه كما يصورهم العرف ضعافا مستحقرين ؛ ولكنهم عدول مسالمون وأباة مدافعون ؛ يلزمون حدودهم ، ويجنبون الناس اذاهم ، ولكنهم يعرفون للمحسن إحسانه ويأخذون المسىء باساءته جزاء وفاقا ؛ لا بغى ولا عدوان .

وما كان لهم أن يجزوا بالسوء احسانا أو بالعرف نكرا ، وقد نبتوا من الأرض وطال فيها مقامهم ، فلم يكن بد أن يأخذوا إخذها فى المعاملة والجزاء ، وهى انما تغل للباذر من نوع مايبذر ، فتعطى باذر البر برا ، وباذر الخربق خربقا ، لا اخلاف ولا تخلف .

هذا مايقول ابن الرومى عن الحقد وأصحابه ، وهذا ماصنع له ولهم ، وليس معه غير فنه وقريحته : صور متلاحقة، وأمثلة صادقة، ونظرات بارعة، وتتبع عجيب وتخريج رائع ، وافتنان ليس له نظير .

فماذا قال شوقى عن الخلق الكريم وأصحابه ، وماذا صنع له ولهم، تؤيده السموات والأرض ومن فيهن ؟ اللهم لاشىء سوى هذه الطائفة المنظومة من الأوامر الصادعة

والقضايا المرسلة بغير حجة ولا تعليل من الفن أو الفلسفة، والا هذه الخطرة الشعرية التي تتراءى في قوله :

وكان جنابهم فيها مهيبا وللاخلاق أجدر أن تهابا
فلولاها لساوى الذئب ليثا وساوى الصارم الماضي قرابا

ومع ذلك لقد أعجب بها شوقي على ما يظهر ، فكررها كدأبه اذ يقول :

لو كان في الناب دون الخلق منبهة تساوت الأسد والذؤبان في الرتب

فزادها التكرار تفاهة على تفاهتها .

لقد كان شوقي بلا مراء شاعرا موهوبا ، مهما يقل خصومه عنه، ويعددوا من مآخذهم عليه ، ولكنه ليس في شعر الأخلاق كمثله في بعض الأغراض الاخرى، بل أخشى ألا يكون في هذا اللون من شعره شيئا مذكورا ، ويظهر أنه كان يعتمد فيه على حسن رأي الناس في الفضيلة وإيمانهم بالحاجة إليها ؛ فكان يقنع في تصويرها والترغيب فيها بأول ما يسنح له من فكرة ، وأقرب ما يحيط به من مادة خيال ؛ ثم يقف عندما يتهيأ له من ذلك كله ؛ لا يحاول المزيد عليه أو التغيير منه إلا بمقدار يسير .

ولعل هذا كان سرا لاستكثار من ذكر البناء ومشتقاته فيما روينا له قبلا من الأبيات ، فالأبنية كما هو معلوم من أقرب المقربات الى ذهن الرجل الحضري المقيم وأكثرها تعرضا له وحضورا فيه .

على أننا أخذا على خطتنا من نصفة الرجل والاشادة بمزيته — نعترف في غير توقف ولا مواربة أن أبياته في الاخلاق أو كثيرا منها على الأصح قد أوتي حظا غير قليل من عذوبة الماء ، وصفاء الجوهر ، واستواء النهج ؛ وتجاوب الجرس ولو أصابت مثل هذا النصيب من افتنان التصوير ؛ وتصنيع الخيال ؛ وحسن المراوحة بين التماس العلة وإقامة الحجة لتأييد المذهب — لكانت شيئا عظيما .

— ٤ —

كيف لقب شوقي إذا بلقب شاعر الأخلاق ؟ ولماذا اختص به من بين شعراء عصره ؟ لقد كان ذلك فيما نعتقد لأمرين :

أحدهما أن شوقى قد أكثر من ذكر الأخلاق فى شعره ، وأدار القول فيها على كثير من المقامات . أما شعراء عصره فأغفلوا ذكرها ، أو أقلوا منه .

والأمر الآخر أن شوقى حين أخذ ينظم شعر الأخلاق إنما كان يبدأ عملا فى أصلح الأوقات له وأحقها به . ومن توفيق الله لامرىء فى عمل أن يهديه لوقته ، ويشرح صدره لأدائه فيه ، فإذ ذاك يتاح له من النجاح فيه بالجهد الهين والاحساس القليل ما يندر أن يتاح له مثله أو قريب منه بالجهد الشاق والاحسان الكثير حين يؤديه فى غير أوانه المقدور .

ففى الوقت الذى كان شوقى يقيم فيه مجده الشعرى كانت مصر تقبل وتتجمع للمطالبة بحقها فى الحياة الحرة الكريمة ، بعد ما أصابها من الارتكاس والتبدد فى الثورة العرابية . وكان جبار الاحتلال لا يعدم أن يجد من ضعفاء النفوس وأصحاب المطامع الشخصية نصراء يمضون إرادته ويهابون سطوته . فكان شعور الناس إذ ذاك مزاجا من الطموح والعزم والنقمة وابتغاء الأسباب .

فاذا تحدث اليهم شوقى أو سواه عن الأخلاق ، وأشاد لهم بعملها فى إقامة بناء الامم وإصلاح حال المجتمع فقد شاركهم فيما هم فيه ، وترجم لهم عن بعض ما يشغل بالهم ، ويحرك مشاعرهم ، ويدعوهم إلى الاصغاء والاستشراف عسى أن يسمعوها قولا ، أو يروها عرضا . فيكون لمقاله فيهم من المنزلة وجلالة الشأن ولطف المدخل وطيب الموقع وحسن التقبل ما لا يكون له حين لا يقع فى أوانه ، وما لا يكون لكل حديث آخر ليس من همهم بسبيل .

ولعل حسن المناسبة نفسه هو الذى أتاح لرسالة مصطفى كامل فى الوطنية أن تلاقى ما لاقت من القبول والاستجابة ، ولعل فقدان المناسبة أيضا هو الذى صرف الناس عن رسالة الأمام محمد عبده فى الأصلاح الدينى ، ونفرهم من رسالة قاسم أمين فى تحرير المرأة والدعوة إلى إنصافها . وأعتقد أن لو تأخر الزمن بكلا هذين الزعيمين الجليلين الى عصره المؤقت لهانت متاعبه ، ولنالت رسالته حقها من الاستجابة والترحيب وحسن التقدير .

ومهما يكن الامر فلا خلاف أن القول لا يستمد سلطانه على النفوس من بلاغته

وتوفيق الله فيه فقط . ولكن يستمده كذلك من مناسبته وجوه ، ومن صلته بالذين يقال لهم ، ومن غير ذلك من ينابيع القوة والتمكين . واذا لم تكن المناسبة أغزرها فى هذا الباب فيضا وأشدها تأثيرا فليست على الاقل بالتى لايحسب لها حساب كبير .

وهانحن أولاء نسمع كثيراً من الحكم المتداولة، يرددها الناس على أسماعنا غدوا ورواحا من مثل : الصبر مفتاح الفرج ، ولا يغنى حذر من قدر ، فلا نهتز لها ، ولا نحفل بها ، ونمضى لشئوننا معرضين كأننا لم نسمع ، وكأنها لم تقل . وماذاك لأن التكرار أو شيوع التداول قد أخلق جدتها ، وبخس من قيمتها فحسب ، ولكن لأننا أيضا نكون إذ ذاك فى شغل عنها بما ليس بينها وبينه شىء من مناسبة وإذا كنا على حال تناسبها رواية تلك الحكم طربنا لها ، وأعجبنا بإصابة معناها وصدق دلالتها ، وقد لانملك أن نرد أنفسنا عن استعادة قائلها أو ترداد روايتها كأن لم يكن لنابها من قبل عهد .

والا فليقل لنا من شاء كيف استطاع قول شوقى :

وإنما الأمم الاخلاق مابقيت فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

أن ينال كل هذا الحظ من شيوع الرواية ، وكثرة الاستدلال ، حتى إن بعض الناس كما يقول هيكل باشا فى مقدمة ديوان شوقى لايكاد يصدق أن البيت لشوقى أو أنه يمكن أن يكون له أو لأحد من شعراء العصر الحديث ويأبى الا أن يعود به الى أزهى عصور اللغة وأحفلها بأمراء البيان .

نعم ليقل لنا من شاء كيف استطاع هذا البيت أن يكون على ماوصفنا مع أنه ليس أفضل أبياته فى الاخلاق ، بل ربما كان فيه من المآخذ ماليس فى بيت آخر منها فهو أولا يجعل الأمة شيئا واحدا ، لامزيد عليه فى عد مقوماتها ، ولا معدى عنه فى خلقها ، فاما أن يبقى فتبقى الأمة معه ، واما أن يذهب فتذهب على أثره ولا يبقى لها بعده حقيقة ولا كيان . فالأمة فى رأيه أخلاقها ولا شىء غيرها . وماهى بها فقط فى الواقع ، ولكن معها مقومات أخر لابد منها ، ولا غناء ببعضها عن بعض فى تكوين الأمة ولقامة بينتها . وأول مايسبق منها الى الذهن العلم والصحة والمال .

وقد يقال : ان شوقى آثر أن يعرض قضية الاخلاق هاهنا فى معرض المبالغة أو التجوز ، ليدل على جلالة شأنها بالاضافة إلى سائر المقومات وعندى أن هذا القول أو هذا الاعتذار لايجدى على البيت شيئا . فشوقى إنما يعالج فيه كما لايخفى نظرية اجتماعية خطيرة ، يريد أن ينفخ فيها روح الفن والخلود ، عسى أن يمضى مقاله فيها مع موكب الزمان حكمة بالغة ، يتلقفها الناس جيلا بعد جيل ، ليقبسوا منها الهداية والرشاد فى أهم ما يعنيهم من مسائل الاجتماع ، وما أحسب أنه يصح أن يكون للتجوز والمبالغة على هذا النحو مجال هنا أو مقام . إذا صح أن يكون لها نصيب من هذا وذاك فى الوصف أو المدح مثلا . فهما ينفخان فى المعنى ، ويزيدان أقطاره عرضا وطولا ، فاذا هو ضخم هائل ، تهون جيرته إلى جانبه . ويتحيفها التضاؤل والانكماش ، حتى تصير شيئا تافها لا شأن له ولا نفع فيه . وكان خيرا من هذا للبيت وأضمن لسداد معناه أن يودعه الشاعر مقومات الأمة كلها . ويبين مبلغ الاحتياج اليها ، ثم يختص الأخلاق إذا شاء بما هى أهل له من إيثار . أما أن يقصر الحديث على الأخلاق ، ويؤتيها وحدها الفضل كله فنقص وقصور ، هيهات معهما أن يتحقق المراد بالبيت على وجهه .

والبيت ثانيا يعنى بالأخلاق الفضائل ، كدأب أكثر أبيات شوقى فى الاخلاق ولسنا نرى لهذا التخصيص ضرورة ولا مبررا ، بل لانرى فيه خيرا ولا له فائدة فان للفضائل خاصة أكثر من اسم فما حاجتها الى هذا الاسم المشترك بينها وبين غيرها ؟ وما المزية البيانية التى تدعو الى هذا التخصيص ؟ اللهم لا شىء فيما نعلم إلا أن تسلب الطبائع الانسانية اسما من أسمائها المتعاملة ، بل اسمها الاصطلاحى الذى أجمع الباحثون على تسميتها به فى دراسة الاخلاق .

صحيح أن بعض النصوص اللغوية يفسر الأخلاق بالمروءة والدين الى جانب تفسيرها بالسجايا والطبائع ، ولكن الاصطلاح العلمى كما ذكرنا انما يستعملها بمعنى الطباع على الاطلاق ، بل ان الاستعمال أيضا ليظاهره فى ذلك ، كما يؤخذ من النصوص التى وقعت عليها ، فالله تعالى يقول : (وانك لعلى خلق عظيم) والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : (ليس شىء أثقل فى الميزان من حسن الخلق) والجاحظ رحمه الله يروى هذين البيتين :

انا وجدنا الناس عودين طيبا وعودا خبيثا لا يبض على العصر
تزين الفتى أخلاقه وتشينه وتذكر أخلاق الفتى وهو لا يدرى

والبيت ثالثا يجعل بقاء الأمة رهينا ببقاء أخلاقها: تبقى ما بقيت، وتذهب حين تذهب. وتلك قضية غير مسلمة حتى اذا جارينا شوقى فى استعمال الاخلاق بمعنى الفضائل، لأن فضائل أى أمة لا تعنى حتما الفضائل الانسانية فقد يكون للأمة أخلاق تدين بها، وتنكر التخلى عنها وهى فى نفسها رذيلة ممقوتة. فعرب الجاهلية مثلا كانت لها أخلاق ذميمة أنكرها الاسلام فما زال بها حتى أبطلها وأحل ضدها محلها، ومع ذلك لم تزل الامة ولا قسما منها يذهب. بل رأيناها تقبل وتتجمع وتصح وتقوى. ثم تنساح فى الارض، فتملؤها حضارة ونورا وعدلا، بعدما ملئت همجية وظلاما وظلما.

وقد استطاع شوقى فى قصيدة ذكرى المولد أن يتلافى هذه المآخذ فى مقطعة منها. عرض فيها للاخلاق وآثارها بالحديث والبيان. قال:

بنيت لهم من الاخلاق ركنا فخانوا الركن فانهدم اضطرابا
وكان جنابهم فيها مهيبا وللأخلاق أجدر أن تهابا
فلولاها لساوى الليث ذئبا وساوى الصارم الماضى قرابا
فإن قرنت مكارمها بعلم تذللت العلا بهما صعابا
وفى هذا الزمان مسيح علم يرد على بنى الأمم الشبابا

فلم يكد يسمى الفضائل أخلاقا فى البيت الاول والثانى، حتى عاد فسماها مكارم فى البيت الرابع. ثم هو لم يجعل الفضائل وحدها مساك الوجود والبقاء فى الأمم بل أضاف اليها العلم. وقرنه بها ومع ذلك لقد جعل قصارى ما يملكان للأمة أن يذللا لها العقبات. ويمهدا لها السبيل الى المعالى. ثم خص العلم وحده ببيت جعله فيه مسيح الامم: ينفى عنها الشيخوخة والاوصاب. ويرد عليها الصحة والشباب وهو بعد ذلك كله لم يجعل حديثه عن فضائل الامم الشخصية. ولكن عن

الفضائل الانسانية عامة ، فكأنه لم يقع فى المآخذ الآنفة عن غفلة أو قلة بصر ، على أننا فى الواقع لانعرف تاريخ قصيدة تهنئة الامير عباس وهى التى منها بيت : وانما الامم الاخلاق . . . ولا تاريخ قصيدة ذكرى المولد . وهى التى منها القطعة الاخيرة . نعم نعرف أن القصيدة الاولى من أقدم شعره . والظاهر من أمر القصيدة الاخرى أنها من شعره الحديث أو على الاقل من الشعر الذى قاله بعد عصر الوالى عباس حلمى .

والذى لاشك فيه على كل حال أن شوقى لم يستطع عرض قضية الاخلاق وعملها فى بناء الأمم عرضا سليما وافيا الا فى أربعة أبيات . فللايجاز بلا شك دخل كبير فى هذا القصور الذى ذكرنا فى بيته المشهور .

على الجندى ناصف

المأمون والفضل بن سهل [1]

للاستاذ محمد أحمد رانق

جرت عادة المتقدمين أن يصفوا أفذاذهم بصفات تدل على نواحي نبوغهم، وتنطق بما كان لهم من فضل وأثر يشيعان في جوانب حياتهم فيشتهرون بهذه الصفات ويعرفون بها إذا أضيفت إليهم، ومن هؤلاء من وصفوا بذي الوزارتين، وذي القلمين، وذي اليمينين، وذي الرمحين، وذي النورين، والفضل بن سهل ذو الرياستين.

وهو الفضل بن سهل بن زاذانفروخ، ويظهر من اسمه أنه ما كان عريقا في الاسلام، فجده زاذانفروخ مجوسي، وأبوه سهل مجوسي، وهو نفسه مجوسي، ولكن الله شرح صدره للاسلام كما شرح له صدر أبيه بعد أن تمجسا صدرا من عمرهما، فقد وجدا آباءهما على أمة فاقتديا على آثارهم.

وقد هيأ الله لسهل أسبابا حملته على الاسلام راضيا أوغير راض، ثم هيأ لابنه الفضل أسبابا حملته على الاسلام أيضا راضيا أو غير راض: فقد يكون اسلام سهل ليدفع به عن نفسه ضرا يحيط به من جيرته، وهو يستعدي بإسلامه من يصدون عنه المعتدين عليه، وسالبيه مالا مقسوما له، أو هو يسترضي قوما مسلمين متصلين بصاحب السلطان ليكون له من قوتهم قوة، فلا يقتحمه جيرانه ولا يؤذونه،

---

(١) محاضرة ألقيت بنادي دار العلوم في مساء الخميس ٢١ مارس سنة ١٩٤٦

ومهما يكن من سبب فان سهلا دخل فى الاسلام : فان أخاه يزيد الذى توكل بجارية عاصم بن صبيح كان له ضيعة أحسن القيام عليها ،فوفر ماله ، ولكنه يخلص لجارية عاصم حتى يحظى عندها حظوة شديدة ، فينقم عليه عاصم لفرط الحظوة ويتهمه ، ويحقد عليه ، ويشتد به ذلك حتى يدعوه وهو سكران ، ويضربه بسيفه ضربة تقضى عليه .

إذن، مات يزيد ، وورثه أخوه سهل ، وصارت إليه ضيعة أخيه وبيته ، ولكن عاصما يخاصم سهلا ، ويلح فى الخصومة ، حتى يضع يده على ماتركه يزيد ، ويمنعه سهلا ، فمن يستعدى سهل على عاصم ليخلص له مال أخيه ؟ ومن ذا الذى يستطيع أن ينصر سهلا على عاصم وهو مولى داود بن على ؟

فكر سهل وقدر ، ثم فكر وقدر ، حتى هداه تفكيره وتقديره إلى باب يحيى ابن خالد البرمكى صاحب الحول والطول فى دار الخلافة . ولكن من لمثل سهل بيحيى البرمكى ودونه الحجاب والموالى ؟ يحتال على ذلك ، فيتصل بسلام أحد موالى يحيى ، يلجأ إليه ، ويعتصم به ، ويستعين بيده على ظلامته ، فيجيب سلام داعى سهل ، ويرسل إلى عاصم أحد الموالى فى جماعة من الناس ، فينزعون منه الضيعة قوة واغتصابا ، ويقرونها فى يد سهل ، ويحمونه ويحمون ولده وماله من وكلاء عاصم ومواليه .

وكان سهل إلى ذلك الحين مجوسيا ، يتعبد كما يتعبد المجوس ،ويزمزم كما يزمزمون ولكن صنيع يحيى أخرجه عن مجوسيته إلى الاسلام ، فهل عرض عليه سلام أن يسلم لانه نافح عنه ورد اليه ماله ؟ أو كان ذلك برا بموعدة وعدها إياه: لئن رد عليه ماله ليدخلن فى دينه ، أو تقرب سهل إلى سلام بدخوله فى دين الاسلام ليعظم فى عينه فيتحمس للدفاع عنه ؛ أو سره أن من المسلمين من ينصف المظلوم ، وإن كان على غير دينه ، فأعجبه ذلك الخلق الجميل ، فدفعه إعجابه إلى الدخول فى الاسلام . وإذا لم يكن هذا ولا ذاك فلماذا لم يسلم سهل قبل ذلك ، وهو يعاشر المسلمين ، ويعيش فى كنفهم ، ويعرف شيئا من تعاليم دينهم ؟

وأيا كان الامر فان سهلا أسلم ، واستمسك به سالم ، ونصب نفسه للدفاع عنه ، وحيطة ماله ، حتى إن عاصما حينما تظلم ليحيي من سلام ، فأنكر يحيي على سلام مافعل — قام سلام مدافعا عن تصرفه ، واقتص القصة على يحيي ، وأحضره سهلا فقام أمامه بحجته ، حتى تبين أنه على حق ، فعاونه على عاصم وكفه عنه .

ولعل اشتكاء عاصم سلاما جعل سلاما يستمسك بسهل ، ويزيد فى قربه إليه ويتولى أمر ضيعته بنفسه ، فيلزمه سهل ويخدمه حتى يعرف البرامكة ، وحتى يعرفه البرامكة ، فيستحضر ابنيه الفضل والحسن إلى ذلك الرحاب ، الواسع الجناب ، ويلتحق الفضل بن سهل بخدمة الفضل بن يحيي ، ويلتحق الحسن بن سهل بالعباس ابن الفضل بن يحيي ، ثم يعرفهما يحيي بن خالد نفسه ، ويقربهما إليه ، ويرعى لهما ولايتهما ، ولم يأل جهدا فى ايلائهما جميله ، وهو يحافظ على يسير الخدمة ، ويصطنع من يتوسم فيهم الصلاح لخدمته ، ويجازيهم معروفا بمعروف ، ويقابل الحسنة بعشرة أمثالها .

والظاهر أن الفضل بن سهل لم يدخل فى الاسلام أول اتصاله بالبرامكة ، فقد ذكر بعضهم أن الفضل بن سهل مر بجماعة وهو على فرس عرى ، وعليه جبة وشى ، وهو بغير سروال ولا خف ، وبيده سيف مشهر ، وخلفه مجوسى طويل العنق ، فوقف المجوسى عليهم ، فاستسقى ماء ، فأتى بماء فى كوز خزف أخضر ، فقال المجوس إنكارا لكوز الخزف : أوشك أن تذهب الدهقنة حتى لا يبقى لشىء منها أثر ! أين الفضة ؟ فقال رجل حظرها الاسلام ، قال : فأين الزجاج ؟ قال : منع منه غلظة الهواء ، فأخذ الكوز فشربه ، ثم قال له الرجل : أما ترى إلى صاحبكم هذا ، مايصنع بنفسه !؟ فقال : اجتمع له سكر الشباب ، وسكر الشراب ، وسكر السلطان ، وسكر الجدة ، وسكر السخاء . ومضى يتبعه فسألنا عنه ، فقيل : هذا الفضل بن سهل كاتبه » . اه من الوزراء والكتاب .

إذن : الفضل بن سهل يخدم الفضل بن يحيي ، ويمشى فى ركابه ، ويتولى الكتابة له ، وهو مجوسى وكان الفضل بن سهل يجيد الفارسية كما يجيد العربية ، ويحسن الترجمة من الاولى الى الثانية ، ولعل ذلك كان من أسباب تمكنه من نفس جعفر بن يحيي ،

وحظوته عنده ، ولعل الفضل بن يحي هو الذى قدم الفضل بن سهل إلى أبيه يحي فعرفه وعرف فيه صفات طيبة تدل على مستقبل عظيم ، وتنبىء عن عبقرية نادرة ، حتى إنه قال له يوما : «فى كل أربعين سنة يحدث رجل يجدد الله به دولة ، وأنت عندى منهم »

فالفضل بن سهل يعظم فى عين يحي البرمكى ، حتى يتنبأ له بأيام سعيدة مقبلة ، وقد زاد إعجابه به حتى إنه ترجم له يوما كتابا من الفارسية إلى العربية فأعجب بفهمه وعبارته وحسن نقله ، فأراد أن يدله على الطريق التى يتـألق فيها نجمه ، ويسعد جده ، ويسير بين الناس ذكره ، أراد أن يدله عليها ضمناً بذكائه أن يضيع وبعبقريته أن تقبر ، تلك هى طريق الاسلام ، فيترك مجوسيته ويدخل فى دين الخلفاء والأمراء والوزراء ، فقد يدرك بسبب إسلامه مالا يدرك وهو فى مجوسيته ، ثم هو مع ذلك لم يدعه يسلم على يديه ، بل يريد له أكثر من ذلك ، فيحب أن يضعه موضعا ينال به من دنيا الخلافة ، ويبلغ مبلغا رفيعا عند أصحابها ، فأمر سلاما مولاه وصاحب الفضل على أخيه أن يأخذ بيد ذلك الفتى المجوسى ، ويذهب به إلى جعفر مربى المأمون فيدخله جعفر على المأمون ، ويسلم على يديه .

ولما كانوا لايستطيعون أن يفعلوا ذلك من غير أن يقف الرشيد على الخبر ، فإن يحي البرمكى قرظ الفتى بحضرة الرشيد حتى احب الرشيد أن يراه ، ويعرف مقدار ما لمكانته من الحقيقة فى نفس يحي ، فاستحضره يحي فى مجلس الرشيد ،ولكن رهبة الخلافة أخذته ، وعقلت عليه لسانه ، فوقف حائرا مشدوها لا يدرى ماذا يقول ؟ ولا إذا سئل فبماذا يجيب .

عجب الرشيد من امر هذا الفتى ، وأنكر على يحي تقريظه أياه ، وتقريبه اليه ، وإهداءه إلى ابنه المأمون ليجلس فى مجلسه ، ولكن الفضل لم يلبث أن فتح الله عليه وحل عقدة لسانه وقال : يا أمير المؤمنين ، إن أعدل الشواهد على فراهة المملوك أن تملك قلبه هيبة سيده ، فتغير رأى الرشيد فى الفتى وقال بعد أن سمع منه هذه العبارة : لئن كنت سكت لتصوغ هذا الكلام لقد أحسنت ، ولئن كان بديهة فهو أحسن وأحسن . إذن ، أحسن الكلام الفتى فى حضرة الرشيد ، وكان كلما سئل أحسن الاجابة ، فلا بأس عليه من أن يقربه ، ولا بأس عليه من أن يسمح له

بالدخول على ابنه المأمون والجلوس فى مجلسه بعد أن أسلم على يديه . ولا عجب أن يرضى عنه المأمون فيصله . ويحسن اليه ، ويجرى عليه رزقا مع غيره من الحشم .

ظل الفضل بن سهل متصلا بالمأمون من ذلك الحين ، وصارت له خاصية به ، وصار له عنده محل ، وتولى الكتابة له ، وصرف أمره كله ، وقدم اليه النصيحة ما كان للنصح محل يقتضيه .

وكان على صلته بالمأمون يرعى عهد البرامكة ، أولياء نعمته ، وذوى الفضل عليه ، حتى إذا نكبهم الرشيد نكبتهم المعروفة ، أختص بالمأمون ، فلما انتقض خراسان على الرشيد وشخص إليه ، عزم على تخليف المأمون ، وعدم إشخاصه معه فقال له الفضل : لاتقبل ، وسله أن يشخصك معه ، فانه عليل ، وغير مأمون إن يحدث عليه حادث ، أن يثب عليك أخوك فيخلعك ، وأمه زبيدة ، وأخواله من بنى هاشم . فسمع المأمون نصحه ، وسأل أباه أن يشخصه معه ، فأبى عليه ، فقال له إنى أريد خدمتك فى هذة العلة ، ولست أسأل حاجة ، ولا أحملك مئونة . فاذن له ، فسار معه

وهذه مناصحة فتى حازم ، وهب الله له ملكة عالية يقدر بها على تصريف أمور من أحبه وآثره .

شاء الله بعد ذلك أن يعتل الرشيد ، وأن تلح عليه العلة . وأن يقضى نحبه فى طوس ، وأن يتولى الخلافة محمد الأمين ، وأن يغرى الناس الأمين بأخيه المأمون ، فيرسل إليه كتابا يأمره فيه بضم ولد الرشيد وحرمه وأهله إلى الفضل بن الربيع ويحذره أن ينفذ رأيا ، أو يبرم أمرا ، إلا بعد الرجوع إلى شيخه . وثقة آبائه الفضل بن الربيع ويأمره أن يقر الخدم على ما فى أيديهم من الأموال والخزائن والسلاح ، وأن لا يخرج أحدا منهم عن ضمن ما يلى حتى يقدم عليه ، ويحذره ألا يأمر لأهل عسكره بعطاء أو رزق إلا إذا تولى ذلك الفضل بن الربيع

أحرج الأمين أخاه المأمون بكتابه ، وكان هوى الفضل بن الربيع مع الأمين فجد بالمسير بالعسكر بجميع ما فيه من خراسان . ولم يحسب للمأمون حسابا . ولم يأبه به ، فأحفظ ذلك التصرف المأمون ، وهم أن يلحق ابن الربيع ومن معه لقتالهم

ولكن ابن سهل صنيعة المأمون ومناصحه والمخلص له ، لم يعجبه ذلك من المأمون وقال له : « إن فعلت هذا لم آمن أن يقبضوا عليك ، ويجعلوك هدية إلى محمد الأمين ، ولكن تقيم ، وتكتب اليهم كتابا . وتوجه اليهم رسولا يذكرهم البيعة وتسألهم الوفاء ، وتحذرهم الغدر والحنث »

أعجب المأمون رأى الفضل بن سهل ، فكتب إلى الفضل بن الربيع كتابا ، ولكنه لم يقبل من الرسول ، ولم يلتفت اليه ، فعز ذلك على المأمون فخفف عنه صفيه وأمينه الفضل بن سهل بقوله :

هؤلاء أعداء قد استرحت منهم وبعدوا عنك ، ثم طمأنه من ناحية الخلافة . وأعلمه أنه ليس من الهين الانتقاض على الخلفاء والخروج على ما قرروه ، والرشيد وضع نظام الخلافة من بعده ، فليس يسيرا على الناس أن ينقضه الأمين ولاسيما أنه يعرف أن المأمون نازل فى أخواله ، وبيعته فى أعناقهم ، وأن الأمين اذا خلعه فسيضطرب أهل بغداد ، وينقسم بعضهم على بعض ، وأوصاه بالصبر ، وتضمن له الخلافة إن شاء الله .

استشار المأمون الفضل فأشار عليه مؤثراً المصلحة على نفسه ، ولا يرى على نفسه غضاضة أن يقدم أعيان خراسان على نفسه ، لأن من يخلص فى النصيحة تتلاشى ذاته ومصلحته ، وليس أمامه مثل أعلى إلا أن يرى سياسته منتصرة ولذلك كان جوابه للمأمون : إن رؤساء خراسان أنفع منى ، فدعنى أكن خادما لك حتى تصير الى ما تحب ، واجعل ظاهر الأمر اليهم وباطنه إلى ، فأعجب المأمون ذلك الرأى ، وتركه يفعل ما يرى .

رأى الفضل أن الأمر أصبح فى يده ، وأن مستقبل المأمون فى عنقه فحمل على عاتقه ذلك الامر وذهب الى رءوس القوم فى منازلهم ، لأن فى ذلك تأنيسا لهم وذكرهم أمر بيعة الرشيد لابنائه ، وأن ذلك أمانة إسلامية وضعت فى أعناقهم ويجب الوفاء للرشيد بأن يكونوا حراسا على عهده ، أمناء على بيعته ، أوفياء لأولاده .

قال الفضل : فكنت كأنى آتيهم بجيفة على طبق لا يحل أكلها . فيدفعنى بعضهم ، ويقول بعضهم : ومن يدخل بين أمير المؤمنين وأخيه ؟

حينئذ خاب ظن الفضل فى رءوس القوم ، إذ خذلوه ، وتحرجوا وتأثموا وعظم فى أنفسهم أن يتدخلوا فى شئون الخلافة ، لأن هذا أمر فوق أن يخوضوا فيه ، أو أن يشيروا برأى .

فلما علم المأمون أنهم غير ناصريه ، أو أنهم على الأقل لن يتدخلوا فيما بينه وبين أخيه ـ أمر الفضل أن يقوم هو بالأمر ، وأن يصنع ما يرى أنه بالغ به غايتـه .

كان الفضل ـ كما قدمنا ـ نجيبا ذكيا ، فجعل همه أن يجمع الناس حول المأمون وأن يجعلهم يخلصون له ، ويقفون أنفسهم للذود عنه ، وتنفيذ سياسته ، ولا يكون ذلك الا بالاحسان اليهم ، وتعطيف قلوبهم بلطف المعاملة ، وحسن السيرة والتودد إلى عظماء خراسان والظهور للناس

بهذا كله أشار الفضل على المأمون ، إذ رأى أن يجمع الفقهاء ، ويدعوهم الى الحق ، والعمل به ، واحياء السنة ، وأن يجلس للمظالم ويكرم القواد والأمراء وأبناء الأمراء ، وأن يغدق على العلماء ويقربهم ثم أشار عليه أن يحط عن خراسان ربع الخراج ففعل ، فأحبه القوم ، وتعلقت به قلوبهم وقالوا : ابن أختنا ، وابن عم رسول الله.

وقد نجحت تلك السياسة ، فانقاد اليه من عصاه ، وصار اليه من نأى عنه

نجحت سياسة الفضل إلى ذلك الحين ، فاقترح على المأمون أن يكتب له كتابا ينشره باسمه على الناس ، يبين لهم فيه خطته ، ويرسم سياسته ، إذا ولى الأمر ، ودخل الناس تحت إمرته .

كتب الفضل ذلك الكتاب الذى جعل فيه المأمون على نفسه لله إن استرعاه امور المسلمين ، وقلده خلافته فى خلقه ـ العمل فيهم بكتابه ، وسنة رسوله ، وجعل على نفسه ألا يسفك دما عمدا ، إلا ما أحلته حدود الله ، وسفكته فروض الله ، وجعل على نفسه ألا ينال من أحد من المخلوقين مالا ولا أثاثا غصبا ولا بحيلة تحرم على المسلمين ، وجعل على نفسه ألا يعمل فى شىء من الأحكام بهواه . ولا يقضيه مالم يكن ذلك فى الله ولله ، ثم أكد على نفسه العهد أن يسير تلك السيرة رغبة من الله فى الزيادة ، ورهبة من المساءلة إن حاد عن الطريق ، وأقر على نفسه أنه إن تغير أو تحول كان مستحقا للعن ، متعرضا للنكال :

. . .

ألح الفضل بن الربيع على الأمين فى خلع المأمون ، وقوى فى ذلك عزمه وأعانه عليه بعض القواد ولم يعنه بعضهم الآخر ، ورأى المشفقون على الأمين أن يغير سياسته مع المأمون ، وأن يحاول أن يجعل خلعه من الخلافة برضاه وموافقته ، إلا أن الفضل بن الربيع الذى كان يكره المأمون ويخشاه – أشار على الأمين أن يكون جريئا فى ذلك ، وألا يدع الوقت يطول بين الأخذ والرد ، فتسنح الفرصة للمأمون فيتألف الناس ، ويقوى جبهته ، وقد يكون فى ذلك عسر عليه ومشقة . فانصاع له الأمين ، وبايع لابنه بالعهد من بعده ، وخلع المأمون والقاسم ، ونهى عن الدعاء لهما على المنابر ، وأمر أحد الحجاب أن يذهب إلى الكعبة ، ويتلطف فى أخذ الكتابين اللذين كان الرشيد علقهما فى الكعبة بالبيعة ، فذهب الحاجب إلى مكة ، وسرق الكتابين وحملهما إليه فمزقهما .

سارت الركبان فى الآفاق بغدر الأمين بأخويه : المأمون والقاسم ، وباستيلاء الفضل بن الربيع عليه ، وتصريفه الأمور من دونه ، وكانوا كلما ذكروا عن الأمين غدره ، ذكروا حسن سيرة المأمون ، ورجاحة عقله وتلطفه ، ورفقه بالناس ، فاستوحش الناس من الأمين ، وانحرفوا عنه ، وسكنوا إلى المأمون ، ومالوا اليه

استوحش الناس من الأمين ، وكرهوا تصرفه ، وانفلوا عنه ، لانحرافه عن الحق ، وما انحرف إلا لسوء بطانته ، وفساد حاشيته ، وعدم إخلاصهم له ، ولقد وصفه وزيره الفضل بن الربيع فقال : ينام نوم الظربان ، وينتبه انتباه الذئب همه بطنه ، ولا يذكر زوال نعمة ، ولا يروى فى امضاء رأى ، قد شغله كأسه ولهوه عن مصلحته ، والايام توضع فى هلاكه

أما المأمون فقد سكن اليه الناس ، ومالوا نحوه لحسن سيرته فى قومه وجميل تصرف حاشيته وعلى رأسهم الفضل بن سهل الذى أحسن الرأى فأصاب وأجاد اختيار الرؤساء والقواد ، فسمعوا وأطاعوا وأخلصوا ، وأحبوه ، وأمروه ، وراسلوه ، واستشاروه ، حتى إن طاهر بن الحسين بعد أن انتصر على جيوش الأمين ، وقتل قائدهم على بن عيسى يقول : أطال الله بقاءك ، وكبت أعداءك ، وجعل

من يشنئوك فداءك ، كتبت إليك ورأس على بن عيسى بين يدى ، وخاتمه فى إصبعى وعسكره تحت يدى ، والحمد لله رب العالمين .

إذ ذاك فرح الفضل بن سهل ، وأسرع إلى المأمون ، وسلم عليه بأمير المؤمنين وسر المأمون أن تنجح سياسته وسياسة مناصحه ومستشاره ، وسره أن ينتصر طاهر ابن الحسين على على بن عيسى بن ماهان وغيره من قواد الامين ، ولكن لم يسره أن يقتل طاهر الامين ، وهو قسيم المأمون فى اللحمة والنسب ، ولم يسر ذلك أيضا الفضل بن سهل ، لما يعلمه مما عسى أن يكون له من الاثر السيء فى نفوس العامة . فلما انتهى اليه الخبر قال : مافعل بنا طاهر ، سل علينا سيوف الناس وألسنتهم ، أمرناه أن يبعث به أسيرا ، فبعث به عقيرا ؟

بلغ من نفوذ الفضل بن سهل أنه يولى من يشاء ، ويعزل من يشاء ، ويصل من يشاء ، ويقطع من يشاء ، إلا أنه ما كان يفعل ذلك عن هوى فى نفسه ، أو رغبة فى منفعة ، ولكنه كان يؤثر المصلحة ، ويتوخى القصد فى كل مايفعل ، فمن آنس فيه قدرة على قيادة الجيوش ، وقرأ فى وجهه الاخلاص ، ولاه القيادة ، ولا يحول دون ذلك حائل ، ومن عرف قدرته على الكتابة ، والتصرف فى أوجه القلم ، أقعده فى الديوان ، وأقعد الكتاب بين يديه ، وماكانت تخيب فراسته فى واحد من هؤلاء : فطاهر بن الحسين قائده الموفق فى كل موقعة حتى انتهى إلى بغداد، وأحمد بن يوسف كاتبه الذى بقى فضله على الكتاب إلى اليوم .

* * *

استقامت الامور للمأمون ، وأصبح خليفة المسلمين ، وخوطب بأمير المؤمنين ودعى له على المنابر فرد التدبير الى الفضل بن سهل ، وأمضاها على رأيه ، ولقبه ذا الرياستين : أى رياسة الحرب ، ورياسة التدبير ، وعقد له على لسان ذى شعبتين ، وأعطاه مع العقد علما كتب عليه لقبه ، وهو أول من جمع بين لقب الوزارة والامارة فى الاسلام .

وقد عظم فى عين المأمون ، ولم يشكر عليه فضله ، فسارع بعد استقامة الامور له ، وكتب اليه كتابا يعترف له فيه بالفضل والنزاهة والاخلاص ، ويقطعه مكافأة له ولأولاده من بعده ، مقاطعة بالعراق .

فيقول : أعتبت يافضل بن سهل بمعاونتك إياى على طاعة الله ، وإقامة سلطانى، فأردت أن أغنيك ، وسبقت الناس : من الحاضر كان لى ، والغائب كان على ، فاحببت أن أسبق الى الكتاب لك بخطى بما رأيته على نفسى ، وأنا أسأل الله تمامه فإن حولى وقوتى ومقدرتى وقبضى وبسطى به ، لاشريك له ، وقد أقطعتك السيب بأرض العراق على حيازة تميم مولى أمير المؤمنين عطاء لك ولعقبك ، لما أنت عليه من النزاهة عن أموال رعيتى ولما قمت به من حق الله وحقى ، فلم تأخذك فى لومة لائم ، ولم تراقب ذا سلطان ولا غيره ، وقد جعلت لك بعد ذلك مرتبة من يقول فى كل شىء فيسمع منه ، ولا تتقدمك مرتبة أحد ما لزمت ما أمرتك به من العمل لله ولنبيه ، والقيام بصلاح دولة أنت ولى بقيامها ، وجعلت ذلك كله لك بشهادة الله ، وجعلت لك كفيلا على عهدى.

« ✡ »

اذن استقامت الأمور للمأمون ، وصارت اليه ولاية أمر المسلمين وألقى المقاليد للفضل بن سهل ودفع اليه خاتمه لعظيم خدمته له ، ولعظيم ثقته فيه ، ولأنه ضمن له الخلافة فوفى ، وما زال يفكر فيحسن التفكير ، ويقدر فيحسن التقدير حتى انتهى الى ما يحب من التصرف فى أمور المسلمين . ولكن الانسان هو الانسان ، والنفس الانسانية هى هى فى عظيم أو حقير : يزهوها النصر ، وتبطرها النعمة ، ويحفظها أن ترى غيرها يزحمها فى موطن عظمتها ، كما يؤلمها أن تهىء الظروف لغيرها ماهيأته لها من أسباب النصر والفخار .

رأى الفضل طرق السعادة تتهيأ لغيره من قواد المسلمين ورءوسهم ممن كانت لهم يد فى نصر المأمون ، وممن كان الفضل نفسه يرى أنهم شيعة المأمون وأهل ولايته وبطانته ، وكان يرى أن فى مشاورتهم تأنيساً لهم ، وكان يرى أن فى قطع الأمر دونهم وحشة وظهور قلة ثقة بهم ، وكان يرى أن عدم استشارتهم تكدرهم ، وتجعلهم يجدون عليه ، وكان يعرض نفسه عليهم فى منازلهم ، وكان إذا تثاقل أحدهم فى أمر سأله أمنيته ، فاذا تمنى أجابه الى أمنيته ، وكان يقول . اذا نال الرجل المنى خاض الدماء .

هذه هى السياسة التى نجح بها الفضل ، والتى حببته إلى الناس ، والتى جعلت المأمون يلقى اليه بخاتمه ، ويجعله مطلق التصرف فى أمور دولته . ولكنه لبس ثوبا غير ثوبه الأول ، وتنكر لمن كان على أيديهم النصر ، وعلى أسنة رماحهم وظبى سيوفهم قامت دولة المأمون ودالت دولةِ الامين . فماذا فعل ياترى !

حال بين المأمون وبين ناصريه ، واستبقاه فى خراسان ، فلم يستطع أحد منهم أن يتقدم إليه ليقفه على حقيقة الامر . وان استطاع واحد أن يصل إليه لا يجد فرصة يتحدث إليه فيها عن شئون رعيته ، وعما يجرى فى الخفاء حيث لا علم له به يدبره الفضل ويمضى الامور على رأيه ، ولا يعرف المأمون . فينتقض الناس على المأمون ، وتقوم الفتن والقلاقل فى مختلف البلاد والاقطار ، ويكثر المتقولون عن الخلافة ، ويشغب عليه الطالبيون

وتعجب أن يكون ذلك من تصرف الفضل وهو الذى يقول فى توقيع له : الامور بتمامها ، والاعمال بخواتيمها ، والصنائع باستدامتها . ومع ذلك فلم يحسن الخاتمة ، ولم يدم الصنائع .

أليس هو الذى وجد فى نفسه على طاهر بن الحسين ، واضع أساس الدولة ، والمنتصر على جيوش الامين ، وقاتل على بن عيسى بن ماهان ، ومرسل رأسه اليه ، ثم قاتل الامين فى بغداد ومزيل خلافته ، ولم يعبأ بعتب وجوه خراسان عليه وعزله عما كان يتولاه من الاعمال ومع ذلك فان طاهرا أرسل اليه كاتبه عيسى بن عبد الرحمن ليظهر الاعتذار ، فلما ورد عليه كلمه كلاما كثيرا ، وأغلظ له ، ثم قال : فلولا أنى رسول الله مأمون ما قلت ما قلته ، فقال له الفضل : أفما خشيت من تحمل هذه الرسالة القتل ؟ فقال عيسى : ما شككت فى القتل ، ولكنى مثلت بين أن آبى على صاحبى تحملها ، وبين أن أقبلها ، فرأيت أنى إن لم أتحملها عجل لى القتل ، وحصلت لى مذمة المخالفة ، وان قبلتها كنت قد شكرت نعمته ، وأطعت أمره ، وعشت بينه وبين الامير أعزه الله المسافة التى عشتها . ثم اعلى أكون وردت من فضل الامير وعفوه وحلمه على ما أرجو ألا أبعد عنه ، فقال له الفضل . لو أطعت فيك النصحاء لاسترحت منك ، ولم تكلمنى فى مجلس أمير المؤمنين ، ودار الخلافة ، بما كلمتنى به .

فقال له عيسى . وما رأى النصحاء أعز الله الامير ؟ فقال له الفضل . أن كنت أضرب عنقك قبل أن تصل الى ، وأرد رأسك فى مخلاة الى صاحبك ، فأكون قد قطعت يده ولسانه . فقال له عيسى ، أنا يده ولسانه ، والله لو أن صاحبى أخرج يده من مضربه ، لوجد حوله سبعين بل سبعمائة ، بل سبعة آلاف كلهم أغنى وأجزأ وأكفأ منى ، ومن أنا فيمن قد عضده الله به ، وأعطاه من كفاته؟

بلغ كلام عيسى من الفضل كل مبلغ ، ووقع فى نفسه أن فى وجود طاهر خطرا عليه ، ولا سيما أنه عزله عن البلاد التى تولاها ، وأقصاه عن أمرتها، وولى مكانه أخاه الحسن بن سهل .

وكذلك وجد الفضل على هرثمة شريك طاهر فى فتح بغداد ، وقامع ثورة ابى السرايا والذى عز عليه أن يكون بين المسلمين ماهو كائن من تذمرهم ،ونفورهم وضعف الروح المعنوية فيهم ، فصمم على أن يتصل بالمأمون مباشرة ، وان يسدى إليه النصح . ويقفه على حقيقة الامر . ولكن ، هيهات ! فقد دس له الفضل عند المأمون ، وملأ صدره حفيظة عليه ، حتى أنه عندما مثل بين يديه عنفه ، وأغلظ له فى القول ، ونهره ، ووثب عليه الحراس ، فأوسعوه ضربا ، ثم ألقوه فى غيابة السجن حيث مات ، وشاع فى الناس أن المامون قتله .

* * *

ويظهر أن الناس فطنوا الى سياسة الفضل ، ولم يتهموه بالتصرف فى أمر الخلافة فحسب . بل زعموا أنه يريد أن يجعل الملك كسرويا ، وأن يحوله من بنى العباس الى الفرس ، حتى أنه عندما أراد المامون أن يحول الناس من السواد الى الخضرة استرضاء للطالبيين لم يقبلوه ، فبعض أجاب ، وبعض امتنع. ودب الهاشميون بعضهم الى بعض فى بغداد ، وأرادوا خلع المامون الذى ما يزال مقيما بمرو ، ولكن المامون قال لوزيره الفضل . ينبغى أن تحضر نعيم بن أبى حازم ، فانه وجه من الوجوه ، وله سابقة وجلالة وسياسة ، فتناظره فيما أجمعناه من هذا الامر . فاحضره الفضل بحضرة المامون ، وعرفه ما عزم عليه من خلع السواد ونبذه ولبس الاخضر ، ورغبه فيه ، وذكره بما يلزم من الانقياد له ، فلم يرق ذلك فى

نظر نعيم ، وعز عليه أن يكون نصير الهاشمى ، وأن يقطع فى ذلك عمره ، وأن يناضل هو وغيره حتى وصلت الدولة الى ما وصلت اليه من عز وثروة وجاه وأمن ، وأن يبذل هو وغيره مهجهم وأرواحهم فى مقارعة أعداء الدوله من الطالبيين وغير الطالبيين ثم قال . انه لا يقبل الضيم ، ولا يسمح بطاعة من كان يسفك دمه ، ويدفعه عما يلتمسه ، ويقارعه دونه .

فلما رأى الفضل صلابته ، وما كان فى كلامه من مغالظة ومخاشنة وإصرار ، تجهم له وخلط له لينا بغلظة ، وكان ذلك منه على غير عادة . فظل نعيم على اصراره وزاد فى المغالظة والمخاشنة ووجه اليه تهمة الخيانة التى وجهت الى البرامكة من قبل ولم يخش سلطان الفضل وسيطرته على المامون ، وتسلطه على أمور الدولة وقال يخاطبه ، انك انما تريد أن تزيل الملك عن بنى العباس الى ولد على ، ثم تحتال عليهم فتصير الملك كسرويا ، ولو لا أنك أردت ذلك لما عدلت عن لبسة على وولده وهى البياض ، الى الخضرة ، وهى لباس كسرى والمجوس ، ثم أقبل على المامون فقال : الله الله يا أمير المؤمنين ، لا يخدعنك الفضل عن دينك وملكك ، فان أهل خراسان لا يجيبون الى بيعة رجل تقطر سيوفهم من دمه ، يعنى عليا الرضا . فقال له المأمون : انصرف ، ولم يظهر له غضبا

اذن : لم يجمع الناس على سياسة الفضل ، ولم يعجبهم أن يتملقوا الطالبيين ، فى التزيى بزيهم ، ثم فى المبايعة لعلى الرضا ، بل زادوا فى ذلك أن اتهموا الفضل فى حضرة المامون بانه يريد أن يجعل الملك كسرويا ، وتصريح نعيم بن أبى حازم بذلك لا يعتبر رأيا شخصيا له ، وانما هو رأى جمع غفير من الناس ، فهو فى قومه سايق مقدم ، له رياسة ، وله جلال ان رضى رضى له كثيرون ، ولذلك كان رأى المامون والفضل اقناعه بضرورة العدول عن السواد الى الخضرة ، لانهما رأيا فى ذلك اعتبارات سياسية تضطرهم اليه ، ولكن نعيما وأمثال نعيم من رءوس القوم لم تعجبهم سياسة الفضل ويرموا بها . حتى ضاقوا به ذرعا وأبغضوه الى حد جعل نعيما يغلظ له فى القول ويرميه بالخيانة ، رغم ما كان بينهما قبل ذلك من مودة فقد كان نعيما يجلس فى مجلس الفضل ، ويسمع له ، ويعمل على توقيره واحترامه ،

حتى لقد أنكر على أحد الكتاب أنه ينزع قلنسوته ، ويجعلها إلى جانبه ، إذا دخل على الفضل ، ولم يكتف بانكار هذا ، بل يغضب ، لأن هذا يخالف تقاليدهم ، ويدل على أنهم لا يحترمون من يفعلون ذلك بحضرته ، ويعتب على أحد أصدقاء ذلك الكاتب الذى يخلع قلنسوته فى مجلس الأمير ، ويعبر عن ذلك بأنه استخفاف بالأمير وبأن الناس تكلموا فيه ، فان لم يقلع عن هذا فانه سيدنو منه ، وينهره ، ويرد قلنسوته إلى رأسه بعنف وانكار .

فنعيم بن أبى حازم كانت له صلة طيبة بالفضل ، يجله ، ويحترمه ، ويدفع عنه ، ويخاصم من أجله ، حتى اذا ساءت قالة الناس فيه ، وتحول عن السياسة التى رسمها لنفسه ولصاحبه المأمون قبل أن يستقيم لهما الأمر ، وشاعت الشائعات من بين يديه ومن خلفه ، كان ماكان من أمر نعيم مع الفضل والمأمون ، بسبب تغيير الشارة من السواد إلى الخضرة ، ترضية لعلى الرضا ، ولى العهد الجديد ، وترضية لمن حوله من الطالبيين

لذلك كان لا بد من التفكير فى أمر نعيم ، كما فكروا فى أمر طاهر وهرثمة وغيرهما ممن لهم فى قومهم سابقة ورياسة وجلال وان نجاح سياسة الفضل مرهون بالتخلص من نعيم . فماذا يصنع ؟ أيقتله كما أشار عليه المأمون ؟لا :أن ذلك من خطل الرأى وغلط التقدير وسوء التدبير لأنهم قتلوا هرثمة ، وقدره فى الناس قدره ، وقد تيقن الناس أنهم قاتلوه ، وضربوا من قبل عنق يحيى بن عامر . وأمروا بحمل عبدالله ابن عامر ، وضربه كما يضرب الصبيان ، وهؤلاء جميعا أمراء فى قومهم ، يرضى الناس برضاهم ، ويسخطون بسخطهم ، ويتذمرون لقتلهم . أو تعذيبهم . أو اهانتهم .

لهذا كله تخوف الفضل من قتل نعيم ، لأنه ان فعل كان لأهل خراسان حركة واضطراب ، اذن : لا بد من التفكير ، واعمال الرأى ، فى التخلص منه ، بحيث لا يتحرك الناس ولا يضطربون .

فكر الفضل والمأمون طويلا ، ثم رأى الفضل أن يوجهه فى عدة قليلة ليحارب أحد الخارجين عليهم ، ويكتب إلى العمال الذين يجتاز بهم بتركه ، وعدم الاكتراث به . ولكن المأمون يكره أن يصير الى ذلك الخارج ، وينضم اليه ، أما الفضل فقد أقنعه أن انضمامه الى الخارج عليهم . أهون من بقائه بينهم ، والرأى ما رأى الفضل

لا ما رأى المأمون ، فانهم سيروا نعيما فى تلك العدة القليلة ، ولكنه لم يلبث أن انضم إلى أعدائهم . فأظهر العداوة لهم . وأعلنوا الغدر به إن أمكنتهم المقادير منه ، وقد كان لهم ما أرادوا . فانهم ظفروا به . وأدخل حافيا حاسرا على الحسن بن سهل يعتذر اليه ويقول : ذنبى أعظم من السماء . ذنبى أعظم من الهواء . ذنبى أعظم من الماء . فيقول له الحسن : على رسلك . فقد تقدمت منك طاعة ، وكان آخر أمرك توبة . وليس للذنب بينهما مذهب . وما ذنبك فى الذنوب بأعظم من عفو أمير المؤمنين عنك فى العفو . وقد أقالك الله . وعفا عنك

« • • »

بدأت سياسة الفضل تتحول وتتبدل كما ذكرنا . فولى أخاه الحسن بن سهل إمارة البلاد التى فتحت على يد طاهر بن الحسين . وأخذ يدس عند المأمون للقـواد والرؤساء من العرب . ويحول بينهم وبينه . ويبلغه أخبار الدولة على غير حقيقتها وتشبه بالملوك فى معاملة الناس . فخوطب بالامارة . وكان يجتمع اليه القواد والفقهاء والقضاة ووجوه القوم . ويجلس بينهم على سرير خاص . وكان لا يدخـل على المأمون إلا على كرسى مجنح . ولا يزال يحمل حتى تقع عليه عين المأمون . فاذا أحس أنه رآه محمولا أمر بوضع الكرسى ونزل عنه ومشى ويحمل الخدم الكرسى . حتى إذا وصل الى المأمون سلم عليـه . ووضع له ذلك الكرسى المجنح . فيجلس عليه فى حضرة الخليفة . وتلك عادة كسروية ذهب فيها الفضل مذهب الأعاجم . واستولى على المأمون حتى ضايقه فى جارية أراد شراءها

تحدث الناس بشأن الفضل واستيلائه على الخليفة . وبسط سلطانه . والكيد للرؤساء والقواد . وبسطوا ألسنتهم فيه . ولكن بعضهم رأى من حق الدين عليه أن يتقدم الى المأمون . وأن ينصح له . حتى يلقى ربه راضى النفس . مطمئن الضمير ومن هؤلاء هرثمة بن أعين الذى قدم الى مرو . ورغب فى المثول بين يدى المأمون مغاضبا ذا الرياستين . فلما دخل دار المأمون وجد ذا الرياستين جالسا على الكرسى فى الدار . والمأمون فى دار أخرى . فلما انتهى هرثمة الى موضعه قعد ولم يسلم على ذى الرياستين ، فلما انتهى ذو الرياستين من نظر ما كان بيده . التفت الى هرثمة وقال

مرحبا وأهلا وسهلا ياأبا حاتم ، أسعدك الله بمقدمك ، وعظم بركته عليك ، فلم يرد عليه ، هرثمة شيئا ، فاستمر الفضل فى حديثه ، قال : انى قد عرفت امير المؤمنين - اعزه الله - خبرك ، وأن ماحملت نفسك عليه من الدخول بغير اذن لغير معصية منك وصرفت ذلك الى أحسن الجهات فقبل ذلك ، ورجع ما سبق الى قلبه منك ، فلم يرد عليه هرثمة شيئا

ألان الفضل القول لهرثمة ولاطفه ، ولكن هرثمة جاء ليقاضيه أمام الخليفة ، فلم تؤثر فيه ملاينة ولا ملاطفة ، فخشى الفضل أن هرثمة اذا اتصل بالخليفة ، يؤثر عليه ويظهره على حقيقة الحال ، فخف مسرعا الى الدار التى فيها المأمون ، وتحدث اليه بما شاء أن يتحدث به ، ثم خرج الى هرثمة وقال له : ياأبا حاتم ، قد عرفت أمير المؤمنين مكانك ، والحال التى أنت عليها من العلة ، وأنه لا يمكنك الوصول اليه إلا على الحال التى وصلت عليها الينا . فلم يرد عليه شيئا ، وبعد قليل أذن له المأمون بالمثول بين يديه ، فلما دخل عليه سلم ، فرد المأمون السلام ، ثم بره وأقبل عليه وأمر ان يطرح له كرسى الى جانبه ، وأقبل عليه يحدثه ويسائله ويعظمه ، ويدعوه بقوله : ياأبا حاتم احتراما له ، ولم يلبث الفضل أن دخل عليهما . وطرح له كرسيه المجنح وجلس ، وبدأ المأمون حديثه والفضل جالس ، قال : ياأبا حاتم ، ما كان لتجشمك هذا السفر مع علتك معنى ، فقال : بلى ياأمير المؤمنين ، تجشمته لأقضى حق الله على فى طاعتك ، وأنبهك على أمرك ، وأقول بالنصح لك ، فقال : ياأبا حاتم ، ليست بك حاجة الى هذا وأنت تعب ، فانصرف الى منزلك ، قال : كلا ياأمير المؤمنين ، ما تجشمت طول السفر لانصرف الى منزلى ، قال المامون : بلى ياأبا حاتم ، أحب ان تنصرف الى منزلك ، وتدع ذكر مالانحتاج اليه ، وأنت عنه فى غنى ، قال : لا ياامير المؤمنين أو اقضى الحق على فى نصحك ، لانى لا آمن ان يحدث على فى هذه الساعة حادثة فألقى ربى مقصرا فى حق امامى

من هذا يرى ان المامون يحاول ان يصرف هرثمة عن الكلام ، لأنه يعلم انه سيتكلم فى امر ذى الرياستين ، ولكن هرثمة يابى الا ان يتكلم ، ويلح فى ذلك الحاحا ، لا يصرفه عنه محاولة امير المؤمنين فى ثنيه عنه ، فالخليفة يلاين هرثمة ويلح فى صرفه ، وهرثمة يرى واجبا دينيا عليه ان يناصح إمامه ، فيندفع ويقول :

الحمد لله الذى لم يمتنى حتى رايت هذا المجوسى فى هذا المجلس على كرسى ، ياامير المؤمنين ، ما لفلان وفلان يحبسان بغير ذنب ، ويأخذ هذا المجوسى اموالهما وامتعتهما فيبيعها ويمزقها ؟!

عز على المأمون ان يتكلم هرثمة عن الفضل بمثل هذا الكلام ، والفضل صاحبه وصفيه وحواريه وجالب الخلافة له ، فتنكر المامون لهرثمة ، وأغلظ له فى القول وأمره أن يمسك عن ذكر مالا يحتاج اليه ، ولكن هرثمة لا يمتنع عن الكلام ويصر على أن يدفع المأمون اليهم هذا المجوسى لينزلوا به ما يستحق ، فغضب الفضل ورد على هرثمة ردا شديدا ، وأمر الحراس أن ياخذوا برجله ويجروه من بين يدى الخليفة ، ففعلوا ما أمروا به ، وحبس ثمانية أيام ثم أخرج فى اليوم الثامن ميتا

شق على كثير من الناس قتل هرثمة ، وبلغ من جزعهم عليه أن دخل أحد القواد على المأمون ، وسلم عليه ، وناداه ياأمير المنافقين ، فوثب عليه الفضل وضربه بسيفه فقتله .

وكذلك كان عبدالله بن مالك ، فان الفضل أراد أن يستذله وينكل به ، وأراد أن يستشهد عليه ببعض الناس ، فلم يجيبوه الى تلك الشهادة ، ولكنه تمكن من تنفير المأمون منه ، ومكن فى نفسه البغض له ، فانه اجتمع فى مجلسه يوما القواد والقضاة والفقهاء ووجوه العامة ، وبعد أن استقام له المجلس على كرسيه ، ابتدا الوقيعة فى عبدالله بن مالك ، وذكر انه كان يدعى على الرشيد ، انه كان يدخل بيوت الفتيان ، وينزه الرشيد عن ذلك ، ويرمى عبدالله بالفسق والفجور والمروق ، ويرميه بأنه كان يأتى المواخير والدساكر ، لا يرفع عن ذلك نفسه ، ولا يأنف من فجره ولا يصون عرضه عن قذره

وهو اذ يرمى بذلك عبدالله يحاول أن يستشهد عليه ببعض وجوه من يتكلم معهم ، ويتحدث اليهم فيقول ، ان ابا معن ليعلم ذلك . ويعرف ما اقول (يريد بأبى معن ثمامة بن الاشرس) ولكن ثمامة يطرق الى الارض ، ويخرج بالصمت عن لا ونعم ، لان عبدالله بن مالك عربى مثله ، ولأنه اذا قال نعم ، كان سببا فى

هلاكه ، فاستمر الفضل فى كلامه ، وتوسع فى الادعاء على عبدالله حتى رماه بالخبل
ثم اقبل على ثمامة مرة ثانية ، واستشهد به ، فلم يجبه ، وخرج بالصمت عن لا ونعم
وانما كان يرجو الفضل من ثمامة ان يؤمن على كلامه امام هذا الجمع من القواد
والقضاة والفقهاء ووجوه العامة ، حتى اذا فتك به بعد ذلك لم يقم من يعترض
عليه ، فلما لم يجبه ثمامة الى ما يريد استمر فى قذفه حتى فرغ من كلامه

فلما انصرف الناس احس ثمامة انه تعرض لموجدة الفضل وهو الوزير ، والمقدم
عند الخليفة ، فما كاد يصل الى منزله حتى لحق به بعض اخوانه من شيعة الفضل ،
وعتبوا عليه ان اعرض عن الفضل يخاطبه مرة بعد مرة ، فقال لأصدقائه : انا والله
احق بالموجدة عليه اعزه الله ، لانه قام فى مثل ذلك الجمع ، وقد حضره كل شريف
ومشروف ، ولم يستشهد بى فى خطبته ، وما اجراه من كلامه الا فى موضع ريبة او
ذكر سكرة ، ومنزل مقين او مقينة ، والله ما اقدر ان اشهد بذلك. فصدقه اصدقاؤه
وراوا انه احق بالمعتبة عليه .

وهو وإن كان بذلك استطاع أن يدفع عن نفسه موجدة الفضل عليه ، فانه يصرح
لخاصته أنه مارد على الفضل تشيعا لعبد الله بن مالك .

ويظهر أن الفضل كانت فى نفسه موجدة أى موجدة لعبدالله بن مالك، فانه مازال
بالمأمون حتى وجد هو أيضا عليه، ويخيل إلى أن عبد الله بن مالك كان يسل لسانه
على الفضل لينال منه ، فشكاه الفضل الى المأمون ، فأحضر قاضى خرسان ، وجلس
للقضاء على مسمع من المأمون ، ليحكم فى قضية ادعاها الفضل على عبد الله بن مالك
وشكا من أنه شتم أمه ، ولكن القاضى كان شاكا فى تلك الدعوى ، فسأل الفضل :
وأمك باقية ؟ قال نعم .قال: فالحق لها، إن كنت صادقا ، فلتحضر لتطالب بحقها ، أو
توكلك ، ويشهد عندى شاهدان أعرفهما بتوكيلها إياك بطلب حقها . فخرج الفضل
من المجلس ثم لم يلبث أن عاد ومعه شاهدان ، شهدا أمام القاضى أن أمه قد وكلته
بطلب حقها . فلما سئل عبدالله بن مالك أنكر ما ادعاه الفضل عليه ، فسأل القاضى
الفضل أن يقيم البينة ، فشهد الشاهدان نفسهما بصدق ما ادعى ، وطلب من القاضى

أن يأخذ له بحقه ، ولكن القاضى كان ذكيا ، فتبين فى الشاهدين كذبهما ، ورجح أن الفضل هو الذى حملهما على الشهادة بالتوكيل ثم الشهادة بصدق الدعوى ، وأبى أن تباح ظهور المسلمين بشهادة مثل هذين الرجلين ، إلا أن المأمون لم يطمئن إلى رأى القاضى ، وأحب أن يؤخذ عبد الله بشهادة الرجلين ، فصاح : أحكم له بشهادتهما ، فابى القاضى ، واقترح على المأمون أن يحكم هو بشهادتهما ، فهو الأمام ،وهو الخليفة ولا راد لحكمه ، فأمر المأمون بالقاضى ، فسحب من الدار ، وحكم هو بضرب عبد الله .

* * *

رأى الفضل بعد ذلك أن يحارب العرب بسلاح البرامكة، فقرب اليه الشعراء . وأغدق عليهم العطاء ، فأطلقوا ألسنتهم فى مدحه وإطرائه ، وفيه يقول أحدهم :

لعمرك ما الأشراف فى كل بلدة ... وإن عظموا إلا لفضل صنائع

ترى عظماء الناس للفضل خشعاً ... إذا مابدا والفضل لله خاشع

تواضع لمـــا زاه الله رفعـــة ... وكل رفيـــع قدره متواضع

ومن مداحه ابراهيم الصولى ، ومسلم بن الوليد ، وغيرهما ، من كبار شعراء العصر العباسى الأول فانهم أحاطوا به لـكثرة رفده ، وسنى عطائه ، ومدحوه وبالغوا فى مدحه ، فكان له من ذلك ما كان لسادته وكبرائه البرامكة من قبله ، ومن قول أحد الشعراء فيه .

للفضل بن سهل يد ... تقاصر عنها المثل

فنائلها للغـــنى ... وسطوتها للأجل

وباطنها للنـدى ... وظاهرها للقبل

وممن مدحوه محمد بن عبد الملك الزيات بقوله

ياناصر الدين إذ رقت حبائله ... لأنت أكرم من آوى ومن نصرا

أعطاك ربك من إكرام نعمته ... رياستين ولم تظلم بها بشرا

لو كان خلق ينال النجم من كرم ... إذا لنالت يداك الشمس والقمرا

لم يجده نفعا أن قرب إليه الشعراء فمدحوه وبالغوا فى مدحه ، لأن سياسته التى

انتصرتها ، وأزال خلافة ، وأقام أخرى لم تكن هى السياسة التى سار عليها بعد أن استقام الأمر له ولصاحبه . فانه . كما قدمنا استبد بالأمر من دون غيره من القواد والرؤساء ووجوه القوم . وحال بين المأمون وبين رعيته . وحبب إليه المقام فى مرو دون بغداد مقر الخلافة . ولم يستطع أحد أن يبلغ المأمون مافعله الفضل بطاهر وهرثمة وغيرهما . وأصبح الناس يبغضون المأمون . والمأمون يبغضهم . فالفضل عنده كل شيء . وما يشير به هو الخير كل الخير وما عداه هو الشر كل الشر . ولكن الأمور لاتستقيم على مثل هذه الأحوال . ولابد أن يهيء الله من تتغير المسائل على يديه . ويجريها صالحة طيبة . إلا أن الفضل كان بالمرصاد لهؤلاء الناس . فاذا تمكنوا من صاحبه أفسده عليهم فيغلظ لهم . ويخاشنهم . ثم ينكل هو بهم ويتعقبهم . فيقتل بعضهم . ويحبس بعضهم . ثم يضرب بالسياط وينتف اللحى ؛ وكان هذا يجعل الناس يتهيبون الأمر . ويفضلون الانتقاض على الخليفة والانفلال عنه . وتفتق الأقطار عليه . على أن يعرضوا أنفسهم للتنكيل والتعنيت .

ظل الحال على ذلك زمانا : فلا ناصح أمين . ولا أذن سامعة واعية ! . حتى استيقظ على الرضا ولى عهد المأمون وضاق بالفضل ذرعا وخشى على الدولة أن تتمزق . ولا سيما أن له فيها اليوم ضلعا فهو شريك صاحبها . وولى عهده والخليفة من بعده .

دخل على هذا على المأمون يوما وكاشفه بحقيقة الحال وأطلعه على ما كان يكتمه عنه الفضل وأعلمه أن أهل بيته والناس قد نقموا منه أشياء وأنهم يقولون : إنه مسحور أو مجنون وأنهم لما رأوا ذلك بايعوا لعمه ابراهيم بن المهدى بالخلافه . فقال المأمون : إنهم لم يبايعوا له بالخلافة وإنما صيروه أمير القوم بأمرهم كما أخبره الفضل فأعلمه أن الفضل قد كذبه وغشه وأن الحرب قائمة بين ابراهيم والحسن بن سهل وأن الناس ينقمون منك مكانه ومكان أخيه منك ومكانى ومكان بيعتك لى من بعدك

فلما علم المأمون بذلك أراد أن يستوثق من الامر قبل أن يتخذ له رأيا فسأل عليا الرضا عن الذين يعلمون ذلك الأمر من أهل عسكره فذكر له على بعضا منهم فأمر بادخالهم عليه يسائلهم عما ذكر على ؛ فلما مثلوا بين يديه سألهم عن حقيقة

الامر ولكنهم كانوا يرهبون سلطان الفضل ويخشون أن يلحق بهم مثل ما ألحق بغيرهم من التعذيب والتنكيل فجعل لهم الأمان من الفضل وأخذ على نفسه عهدا ألا يدعه يتعرض لهم فوقفوه عل حقيقة الحال وأطلعوه على ماهو مشتعل من نيران الفتن وأخبروه بغضب أهل بيته ومواليه وقواده عليه فى أشياء كثيرة وعرفوه أن الفضل دس الى هرثمة من قتله وما كان من هرثمة شىء أكثر من أنه كان يريد مناصحة الخليفة بما يناصحونه به الآن. وأنكروا عليه أن طاهر بن الحسين الذى أبلى فى طاعته ما أبلى ، وافتتح من البلاد ما افتتح ، وقاد إليه الخلافة مزمومة — أنكروا عليه أن هذا الذى وطأله الامر يخرج من الامر مسخوطا عليه ويصير الى زاوية من الارض وتحظر عليه الاموال ليضعف أمره ويشغب عليه جنده .

وما زال القوم بالمأمون حتى غيروا رأيه وأقنعوه بضرورة الخروج الى بغداد لكى يهدأ الناس ويطمئنوا عليه ويتقدموا له بالطاعة وتهدأ الثورات التى اشتعلت فى أكثر البلاد .

علم الفضل بالامر فجاء بمن ناصحوا المأمون ونكل بهم تنكيلا شديدا ولم يحمهم المأمون ولما قيل له فى ذلك اجاب بأنه يدارى ماهو فيه ثم أمر بالخروج من مرو إلى بغداد فلما وصل فى طريقه إلى سرخس تآمر قوم على الفضل. ودخلوا عليه فى الحمام وشدوا عليه فضربوه بالسيوف حتى مات فى أوائل شعبان سنة ٢٠٢ هـ

* * *

والذى أرجحه أن المأمون حينما تفتقت عليه أقطار الدولة وانفل عنه أقاربه من بنى العباس واجترأ عليه بعض الرؤساء وخاشنه حين كان يعتب عليه فى استسلامه للفضل وأخذ العهد على المسلمين لمبايعة على الرضا من بعده وقامت الثورات فى كثير من البلاد وبويع لابراهيم ابن المهدى بالخلافة فى بغداد حينما حدث هذا كله تلفت حوله فوجد أنه مقبل على ظلام شديد لا بد أن يسارع إلى تبديده وإزالة سحبه واحدة فواحدة فدس على الفضل من قتله ، ثم جاء بقتلته وأجرى معهم تحقيقا فجابهوه بأنه الآمر بقتله فقتلهم إما خشية أن يفتضح الامر وإما ارضاء لاخيه الحسن الذى تزوج

من ابنته وولاه الوزارة مكانه . ثم أتى بمن كانوا ينقدون سياسة للفضل وقتلهم ، ثم قتل عليا الرضا إرضاء لبنى العباس ، ثم حرض خادما له على طاهر بن الحسين فسمه وكان سببا غير مباشر فى اعتلال الحسن بن سهل بعلة زامنته أكثر من ثلاثين عاما حبس من أجلها فى بيته ، وقيد بالحديد .

بعد أن تخلص من هؤلاء جميعا صفا له الجو ، واستنار الطريق ، وصار خليفة من جديد .

وبعد — فان موقف الفضل من المأمون ، وموقف المأمون من الفضل . يذكرنا بما كان بين أبى مسلم الخراسانى والمنصور ، وبما كان بين البرامكة والرشيد ، فكان على الفضل أن يتعظ بما جرى لأبى مسلم من قبله ، ثم بما جرى لأساتذته البرامكة على مرأى منه ومسمع .

ولكن يظهر أن الانسان هو الانسان ، من أى جيل وفى أى زمان ، يطغيه السلطان ، وتبطره النعمة ، وتعميه شهوة الرياسة عن النظر فيما يجرى حوله من أمور . ويخيل إليه أن على بصر الناس غشاوة : فليس لهم رءوس ، وليس فى رءوسهم عقول ، وهؤلاء وأمثالهم ، لايضلون إلا أنفسهم ، ولا يؤتون إلا من مأمنهم ، فاللهم اجعل لنا فى سير الماضيين عبرة ، وهيىء لنا من أمرنا رشدا .

* * *

مراجع البحث

١ — تاريخ الطبرى ج ٩
٢ — الكامل لابن الاثير ج ٦
٣ — تاريخ ابن خلدون ج ٣
٤ — مروج الذهب ج ٣
٥ — تاريخ ابن الوردى
٦ — الاخبار الطوال
٧ — وفيات الاعيان ج ١
٨ — الاعلام ج ٢
٩ — مختارات البارودى ج ٢
١٠ — الامالى ج ٣
١١ — التنبيه والاشراف للمسعودى
١٢ — الوزراء والكتاب للجهشيارى

محمد أحمد برانق

فى رسالة الغفران لأبى العلاء

بقلم

السباعى بيومى الأستاذ بدار العلوم

— ١ —

تمهيد

كان يعيش بمدينة حلب فى أخريات القرن الرابع الهجرى وأوائل الخامس ، رجل تأدب بأدب أهلها هو أبو الحسن على بن منصور القارح بن طالب الحلبى ، وقد درس فى المدينة المذكورة على علمائها كابن خالويه، وعلى أدبائها كأبى الحسن المغربى ، وفى شبيبته ارتحل عنها إلى بغداد فدرس على أبى على الفارسى وأبى سعيد السيرافى وعلى بن عيسى الرمانى وأبى عبد الله المرزبانى وأبى حفص الكتانى ، ولما استوعب ما عندهم وعلم سفر أبى الحسن المغربى المذكور إلى مصر شخص اليه فيها فدارسه زمانا ثم خرج منها إلى الحجاز حاجا ، ولكنه أقام فى تلك الأماكن المقدسة خمس سنين عاد بعدها إلى مصر ، فلم يزل بها حتى قتل أبو الحسن المغربى على يد الحاكم الفاطمى سنة ٣٩٧ ، وهرب ابنه أبو القاسم المغربى إلى ميافارقين على الفرات فهرب معه .

ولما كان أبو القاسم المذكور كثير التنقل بين مدن تلك الأصقاع ، كثر تنقل ابن القارح معه ، وصادف أن تعرف فى مدينة آمد بأبى الفرج الزهرجى فأعجب أبو الفرج بعلمه وأدبه ، وكان أبو العلاء إذ ذاك قد طبقت شهرته العلمية الأدبية وصيته

الحر الفلسفى الآفاق ، وعزم ابن القارح على قصده فى معرته فحمله أبو الفرج هذا الى أبى العلاء رسالة إعجاب منه بمكانته تلك ، وأخرى لابن القارح بمثل ذلك ، غير أن سوء الحظ أو حسنه لاندرى ، جعل عاديا يعدو على رحل ابن القارح بالسرقة وفيه الرسالتان ، فأنشأ ابن القارح الى أبى العلاء رسالة منه اليه بديلا من رسالة الزهرجى فى موضوعها ، قال فيما قال من تصديرها بعد الاستفتاح : —

كتابى أطال الله بقاء مولانا الشيخ الجليل ومد مدته وأدام كفايته وسعادته ، وجعلنى فداءه وقدمنى قبله على الصحة والحقيقة وعمد القصد والعقيدة ، وليس على مجاز اللفظ ومجرى الكتابة ولا على تنقص وخلابه وتحبب ومساحه ، ولا كما قال بعضهم وقد عاد صديقا له « كيف تجدك جعلنى الله فداك » وهو يقصد تحببا ويريد تملقا ، ويظن أنه قد أسدى جميلا يشكره صاحبه إن نهض واستقل ويكافئه عليه إن أفاق وأبل ، عن سلامة تمامها بحضور حضرته وعافية نظامها بالتشرف بشريف عزته وميمون نقيبته وطلعته ، ويعلم الله الكريم تقدست أسماؤه . أنى لو حننت اليه أدام الله تأييده حنين الواله الى بكرها وذات الفرخ الى وكرها . أو الحمامة الى الفها أو الغزالة الى خشفها ، لكان ذلك مما تغيره الليالى والايام والعصور والأعوام لكنه حنين الظمآن الى الماء ، والخائف الى الامن . والسليم الى السلامة ، والغريق الى النجاة والقلق الى السكون ، بل حنين نفسه النفيسة الى الحمد والمجد . فانى رأيت نزاعها اليهما نزاع الاستقصات الى عناصرها والاركان الى جواهرها . فان وهب الله فى ملا من العمر أن يؤنسنى برؤيته ويعلقنى بحبل مودته ، صرت كسارى الليل ألقى عصاه وأحمد مسراه ، وقر عينا ونعم بالا ، وكان كمن لم يمسسه سوء . ولم يتخوفه عدو ولا نهكه رواح ولا غدو . وعسى الله أن يمن بذلك بيومه أو بثانيه وبه الثقة . وأنا أسأل الله على التدانى والنوى والبعاد ، إمتاعه بالفضل الذى استعلى على عاتقه وغاربه . فمن مر على بحره الهياج ونظر فى لألاء بدره الوهاج . خليق بأن يكبو قلبه بأنامله . وينبو طبعه عن رسائله . الا أن يلقى اليه بالمقاليد أو يستوهبه إقليدا من الأقاليد . فيكون منسوبا اليه ومحسوبا عليه ، ونازلا فى شعبه وأحد أصحابه وحزبه ، وشرارة ناره وقراضة ديناره ، وسمل بحره وثمد غمره ، وهيهات ،

ضاق فتر عن شبر وليس التكحل فى العينين كالكحل . خلق سخيا لامتساخيا وليس السخى من يتساخى : وأخلاق النفس تلزمها لزوم الألوان للأبد.ان لايقدر الأبيض على السواد ولا الأسود على البياض.ولا الشجاع على الجبن ولا الجبان على الشجاعة قال أبو بكر العرزمى

يفر جبان القوم عن أم رأسه ويحمى شجاع القوم من لا يناسبه
ويرزق معروف الجواد عدوه ويحرم معروف البخيل أقاربه
ومن لايكف الجهل عمن يوده فسوف يكف الجهل عن يواثبه

ومن أين للضباب صوب السحاب وللغراب هدى العقاب ، وكيف وقد أصبح ذكره فى مواسم الذكر أذانا وعلى معالم الشكر لسانا . فمن دافع العيان وكابر الأنس والجان واستبد بالأفك والبهتان، كان كمن صاب بوقاحته الحجر وحاسن بقباحته القمر وهذى وهذر وتعاطى فعقر . وكان كمحموم بلسم فعفر ونادى على نفسه بالنقص فى البدو والحضر . وكان كمن قال من يعنيه ولا يشك فيه

كناطح صخرة يوما ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

وروى أن رسول الله صلى الله وسلم عليه وزاده شرفا لديه . قال « لعن الله ذا الوجهين لعن الله ذا اللسانين لعن الله كل شقار لعن الله كل قتات »

وبعد أن طوف ابن القارح فى رسالته هذه على كثير من العلماء والأدباء والشعراء والفلاسفة والمتنبين ، والزنادقة والملحدين وغير هؤلاء وهؤلاء فتحدث اليهم وتحدث عنهم . مظهرا علم نفسه وأدب شخصه ، فى أسلوب يرجو من ورائه حمل أبى العلاء على الاعتراف بفضله والتقدير لأدبه ، ختم الرسالة بقوله

« تمت الرسالة والحمد لله وصلواته على محمد وخيرة الآل ، وما فرغت من هذه السوداء حتى ثارت بى السوداء ، وأنا أعتذر من خطل فيها أو زلل ، فان الخطأ مع الاعتذار والاجتهاد والتحرى موضوع عن المخطىء ، ومن الذى يؤتى الكمال فيكمل قال عمر بن الخطاب « رحم الله امرأ أهدى الى عيوبى » وأساله أدام الله عزه تشريفى بالجواب عنها ، فان هذه الرسالة على ما بها ، قد استحسنت وكتبت عنى وسمعت منى ، وشرفتها باسمه وطرزتها بذكره — واذا جاء جواب هذه سيرتها بحلب وغيرها إن شاء الله وبه الثقة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم

لم يكن من أبي العلاء وقد طلب منه ابن القارح عن تلك الرساله الجواب ، إلا أن يكتب رسالة الاجابة ، أطول مما كتب ابن القارح ، وأعمق فيما قصد وأشمل لما أراد، بحيث تخرجه متى قرأها ، طارحا لأعجابه بنفسه قابعا فى أسمال التواضع، لامتطاولا فى حلل الخيلاء ،ولم يشأ أن يقف منه عند الرد برسالة على رسالة بل أصحبها رسالة أخرى أنشأها ابتداء ، فجاءت وحيدة عصرها فريدة دهرها متوجة كل ما سبقها من قصص عربى، بتاج العبقرية والفخار ، هى رسالة الغفران .

وبعد فأما جواب المعرى عن رسالة ابن القارح فحسبنا فيه إشارتنا اليه . وأما رسالة غفرانه فهى معنانا فيما قصدنا، واليك التعريف بها تحت العناوين التى اخترنا : —

أولا ـ أشخاص الرسالة ومتناولها

بدأ المعرى رسالة الغفران بقوله : —

« وصلتنى الرسالة التى بحرها بالحكم مسجور ومن قرأها لاشك مأجور ، إذ كانت تأمر بتقيل الشرع وتعيب من ترك أصلا إلى فرع . فغرقت فى أمواج بدعها الزاخرة وعجبت من اتساق عقودها الفاخرة . ومثلها من شفع وقرب عندالله ونفع، وفى قدرة ربنا جلت عظمته، أن يجعل كل حرف منها شبح نور لا يمتزج بمقال الزور، ولعله سبحانه قد نصب لسطورها المنجية من اللهب معاريج من الفضة أو الذهب ، تعرج بها الملائكة من الارض الراكدة الى السماء الصاعدة ،بدليل الآية « اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » وهذه الكلمة الطيبة كأنها المعنية بقوله « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بأذن ربها » وفى تلك السطور كلم كثير كله عند الله تقدس أثير، وقد غرس لمولانا الشيخ الجليل ان شاء الله بذلك الثناء شجر فى الجنة لذيذ اجتناء، كل شجرة منه تأخذ ما بين المشرق الى المغرب بظل غاط ، والولدان المخلدون فى ظلال تلك الشجر قيام وقعود يقولون ـ والله القادر على كل شىء عزيز — « نحن وهذه الشجر صلة من الله لعلى بن منصور نخبأ له الى نفخ الصور »

ثم أخذ يصف ما يجرى فى أصول ذلك الشجر من الانهار المتدفقة بماء الحيوان وأنهار اللبن الذى لم يتغير طعمه وأنهار العسل المصفى وأنهار الخمر التى لا غول فيها ولا تأثيم، الى ما يتصل بهذه الاشياء كلها مما جرت به عادة العرب فى العاجلة وما ساقته الشرائع من وصفها فى الآجلة، تفخيما لشأنها وتحبيبا للناس فيها، حتى اذا ما انتهى من تلك الاوصاف التى أضفى تخيل أن ابن القارح وقد استحق تلك الرتبة، قد صعد به اليها فى الفردوس فاصطفى له من الندماء الادباء من اصطفى وهنا يبدأ الحديث عن أولئك الندامى فيتخيلهم أول ما يتخيل قد نزع الله ما فى صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين، فثعلب قد غسل صدره من الحقد على المبرد، وسيبويه قد رحض قلبه من الضغن على الكسائى، وأبو عبيدة قد صفت طويته للاصمعى، فاذا ما عب مع اولئك من أنهار الرحيق، خطر له حديث شىء كان يسمى فى الدار الفانية «النزهة» واذا نجيب من نجب الجنة قد خلق من ياقوت ودر فيركبه ويسبح فى جو بعد عن الحر والقر، وفى هذه النزهة يتلاقى بمن أراد أن يتلاقى فى الجنة من أهلها المستحقين لها على حسب تقدير الناس فى الفانية، وممن غفر الله لهم لأسباب علمها منهم على غير ما كان أولئك الناس يتوقعون فيهم — وهو من أجل هذه الأسباب الغافرة سمى رسالته رسالة الغفران — وذلك كالأعشى قيس الذى غفر له بقصيدته التى قصد بها إلى الرسول ﷺ لولا أن صدته عنه قريش لنهيه عن الخمر، ويا لها من دقة فى التصوير حين أردف ذلك بأن حرمت على الأعشى خمر الجنة لايثاره خمر الدنيا على المضى إلى رسول الله تأثراً بذلك النهى عنها، وكزهير بن أبى سلمى الذى غفر له بوصاته بنيه أن يتمسكوا بحبل النور الذى رآه فى منامه قد تدلى من السماء، وكعبيد بن الأبرص الذى غفر له ببيته «من يسأل الناس يحرموه: وسائل الله لا يخيب» هذا البيت الذى لم يزل كلما أنشده الناس يخفف من عذاب عبيد حتى لم يبق عليه عذاب. وكعدى ابن زيد الذى غفر له أنه كان فى الجاهلية على دين المسيح. وكنابغة بنى ذبيان الذى غفر له اقراره بالله فى جاهليته وتعظيمه بيته وحجه إياه.

أما الأولون فكان منهم أبو ذؤيب الهذلى والنابغة الجعدى ولبيد العامرى وحسان الانصارى وجران العود النميرى ثم عوراء قيس الخمسة — الشماخ بن ضرار،

وعمرو بن أحمر وعبيد بن الحصين ،وحميد بن ثور ،وتميم بن أبى مقبل – وما كان ألبقه فى أن يجرى الحديث مع كل واحد من هؤلاء فى الوادى الذى يطرد وتياره ويتوام وأدبه وينبه فيه عن ناحية تكشف غامضا أو تدفع ريبا . بل ما كان ألبقه أن يتخيل تميما – وقد أنساه هول الحساب شعره – يقول لابن القارح وقد بقى له أدبه ، أن حفظك لمبقى عليك كأنك لم تشهد هول الحساب يوم المحشر ، ليكون جواب ابن القارح له ، أنا أقص عليك قصتى يوم الموقف ، وهنا يفيض الحديث فى هول ذلك اليوم وما كانت حاله منه. فيذكر أنه تشفع فيه بشعره الى رضوان وزفر فلم يعد عليه بنفع . وأنه التقى بحمزة بن عبد المطلب عن طريق شعره أيضا فلم يفده بشىء . غير أنه أنفذ معه رسولا الى على بن أبى طالب ليتوسل اليه بما كان من توبته . وأنه ذهب وتوسل بها فسأله على الشاهد عليها ، فشهد له قاضى حلب وعدولها أيامه ، وهنا يرد الحوض ويتمسح بفاطمة الزهراء ومن معها من سائر العترة أن تريحه من هول الموقف وتعجل بمصيره إلى الجنة، فتعهد بذاك له إلى أخيها ابراهيم الذى أمره أن يتعلق بركابه ، وأوصله الى صاحب الشفاعة أبيهما محمد صلى الله عليه وسلم صاحب الموقف فتشفع له بتوبته ويأذن له بدخول الجنة ، ولكن أنى له بعبور الصراط لولا جارية للزهراء أمرتها سيدتها أن تجيزه فأجازته ووهبتها له ، حتى اذا ما صار على باب الجنة توقف رضوان واذا إبراهيم بن الرسول قد عاد اليه فجذبه جذبة حصلته فى الجنة ، وقد بقى له أدبه وحفظه ما نزفه هول موقف ولا نهكه تدقيق حساب .

وهنا يبدو له أن يطلع الى أهل النار لينظر ما هم فيه من جحيم ، فيعظم شكره على ما رأى لأهل الجنة من نعيم ، فيسير واذا هو يرى فى أقصى الجنة بيتا كأنه كوخ أمة راعية ، أمامه شجرة قمينة ليست بذات ثمر ، وفيه رجل ليس عليه نور أهل الجنة ، ولم يكن ذلك الرجل الا الحطيئة ، فيعجب له ويسأله كيف رضى بهذا البيت ، فيقول والله ما وصلت اليه الا بعد هياط ومياط ،وما كان ذلك الا لصدقى فى ذم نفسى، أما قول

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

فلم يغفرلى لأنى قلته ولم أعمل به ، فاذا ما سأله عن الزبرقان بن بدر قال هو رئيس فى الآخرة كما كان رئيسا فى الدنيا ، انتفع بهجائى ولم ينتفع غيره بمديحى ، وبينا يسير فى طريقه إلى الجحيم اذا هو بمدائن ليس عليها النور الشعشعانى الذى لمدائن الجنة ، فيسأل ما هذه فيجيبه بعض الملائكة هذه جنة من آمن بمحمد من العفاريت، فيعدل اليها تلمسا لبعض الأعاجيب فيها ، واذا هو بشيخ منهم استسماه فقال أنا الخيتعور أحد بنى الشيصبان الذين ليسوا من ولد ابليس إنما هم من الجن الذين كانوا يسكنون الارض قبل ولد آدم ﷺ ، فيقول وما كنيتك لأكرمك بالتكنية فيقول أبو هدرش ، ثم يدور بينهم الحديث حول أشعار الجن وينتهى بأن ينشده ذلك الشيخ قصيدتين من شعره ، يذكر فى أولاهما ما كان من تمرده وإيذائه قبل أن يؤمن ، ويقص فى الثانية حديث الرجم وأشياء من إيذائه وغواياته التى لم تزل دأبه حتى آمن ، فانقلب من أهل الجهاد والغزوات كما حدث فى كثير من الأبيات .

واذا ما انتهى به المطاف الى أقصى الجنة رأى هنالك الخنساء تطل على أخيها صخر فى الجحيم كالجبل الشامخ والنار تضطرم فى رأسه كما قالت فيه ، فاطلع فرأى إبليس اللعين فى السلاسل والأغلال ، وهنا يبدأ الحديث مع أهل الجحيم ، فيتحدث عن إبليس ومحاولته فتنة بنى آدم فى الآخرة كما كان دأبه فى الدنيا ، وعن بشار ويده عند إبليس لتفضيله اياه على آدم ، وعن امرىء القيس وتكذيبه نسبة الشعر المسمط اليه ، وعن عنترة وخطئه فى دعواه عدم ترك الاول للآخر من الشعر شيئا ، وعن علقمة وسوء رأيه فى النساء ، وعن عمرو بن كلثوم وسناده فى معلقته ، وعن الحارث اليشكرى فيما أخذ عليه وما استحسن له ، وعن طرفة فى سمو لاميته والحقيقة فيمن الآمر بقتله ، وعن أوس بن حجر وتضارب الرواة فى نسبة بعض الأبيات اليه أو الى النابغة الذبيانى ، وعن أبى كبير الهذلى وضيق عطنه بالقريض لتشابه المبادىء فى كل قصائده على قلتها ، وعن الاخطل فى صفته الخمر وإقامته على النصرانية وارتوعه فى مراتع الضلال مع يزيد بن معاوية وتهكمه بشعائر الاسلام ، ثم عن مهلهل وتقصيده القصيد ، والشنفرى وقلة شكواه كأصحابه فى النار أخذا بقوله،

فى الفانية «وللصبر إن لم ينفع الشكو أجمل» وتأبط شرا وتكذيبه عن نفسه نكاح الغيلان وتقريره أن ماقال فى ذلك من شعر إنما كان تقولا وتخرصا على عادة الجاهليين

إلى هنا ويعن له أن يعود الى محله فى الجنة، فاذا ما عاد لقى آدم أبا البشر وساله عن نسبة الشعر اليه، فيتفيه له ويصيح فيه، «لا حول ولا قوة الا بالله. كذبتم على خالقكم وربكم ثم على آدم أبيكم ثم على حواء أمكم وكذب بعضكم على بعض» فيتركه ضاربا فى غيطان الجنة الى جنان الحور» واذا هو يرى أبياتا ليس لها سموق أبيات الجنة هى أبيات الرجاز فيقول تبارك العزيز الوهاب لقد صدق الحديث المروى «إن الله يحب معالى الامور ويكره سفسافها» وان الرجز لمن سفساف القريض قصرتم أيها النفر فقصر بكم وهنا يدور بينه وبين رؤبة فى ذلك حجاج يطول حتى يسأل فيه العجاج المحاجزة، فينصرف ابن القارح الى متاعه فى الجنة يعب من رحيقها بين حوره وولدانه، فاذا ما تمنى فى خاطره أن يلحقه ماكان يلحق أخا الندام من فتور، وقع فى ذلك على مفرش من السندس فى سرير، واذا السرير تحمله جوار وغلمان الى محله المشيد فى دار الخلود، وكلما مر بشجرة نضحته بالمسك وماء الورد قد خلط بالكافور، وانقضبت ثمارها من أغصانها بقدرة الله الى فيه، كل ذلك وأهل الجنة يتلقونه بالوان التحية والترحيب، وآخر دعواهم — كما أخبر القرآن — أن الحمد لله رب العالمين.

السباعى بيومى

العاطفة وارتباطها بالادب [1]

للاستاذ عبد الحميد حسن (٢)

قد علمنا أن الأدب هو نوع من الانتاج العقلى وانا إنما نحرص على الرائع منه وعلى ماله شأن فى حياة الفرد وخير الامة فالغاية من الادب أن يكون غذاء لخير ما فى الفرد من صفات ونزعات وحافزا الى عظيم الشيم ومعبرا تعبيرا صادقا عما يتجلى فى البيئة الطبيعية والاجتماعية . وأن الادب الذى نحرص عليه هو الذى ينفذ الى الحياة فيجلى أسرارها ويظهر محاسنها وينمى خير ما فيها ، وهو الذى يتصل بالرفيع السامى مما فى النفس الانسانية ، وهو الذى يمدنا بما يملأ قلوبنا اعجابا وروعة ويجد فيه الجيل الحاضر والاجيال القادمة غذاء عقليا يسمو بنفوسهم

فكيف نصل الى أن نجعل الوان الانتاج الادبى وموضوعاته محققة لهذه الاغراض السامية ؟

ليس لهذا الانتاج قوانين تحظر أنواعا وتبيح أخرى فان الانتاج الادبى لارقيب عليه ، وكل أديب أو متأدب له أن يسطر ما يشاء ، وأن يغمر الصفحات بما يطيب له ، وأن يستثير من النزعات الانسانية ما يريد ، ومن الوان العواطف ما يرى نفسه متجهة اليه . وقد يسير بعض الادباء فى اتجاه يدور حول أشخاصهم ونزعاتهم الفردية ولا يعنون الا بالاصغاء الى داعى ميولهم وأهوائهم ، ومنهم من يجعل همه اجتذاب الاعجاب واثارة الميول وارضاء الشوق ولو دعاه هذا الى ركوب الشطط فى ايقاظ الهابط من النزعات والاسراف فى الوان رخيصة من الادب لاتحقق الغاية التى ننشدها

ولسنا نملك أزاء هذا أن نحظر على الادباء أن يعرضوا ماشاءوا أو أن يسلكوا

---

(١) انظر القسم الاول من المقال فى العدد الثالث من السنة التاسعة .

من السبل ما يحبون ولكن الذى نستطيعه انما هو توجيه الاذهان الى مقومات الادب الصحيح ، والى العواطف ذات الشأن فى تنشيطه وتقويمه . وللنقاد فى هذا الميدان كبير الاثر اذا صحت همتهم وساروا الى القصد بخطوات سديدة

...

فماذا عسى أن تكون هذه العواطف ، وما الذى ينبغى أن يتوافر فيها من شروط ؟

لعلنا لانعدو الجادة اذا اشرنا الى أنواع من العواطف نرى أن لها شأنا فى الادب وهى :

(١) العواطف الاجتماعية والقومية

(٢) العواطف الصادقة البعيدة عن التكلف والتصنع

(٣) العواطف المثقفة

(٤) العواطف ذات الشأن فى المثل العليا للحياة

(٥) العواطف الفردية التى تعبر عن قدر مشترك من الميول تجيش به نفوس الجميع من بنى الانسان

فهذه الانواع مما ينهض بالادب العاطفى ويكسبه قوة ويزيده خصبا ويجعل أثره شاملا

(١) فالعواطف الاجتماعية والقومية هى التى تخرج بانفعالات الاديب إلى ميدان واسع وتنشرها فى المجتمع وتتصل بالحياة فى شتى نواحيها وتتجه بآمال الشعب وميوله وجهة توحد غاياته العامة وتربط أواصره وتكون له كالمصابيح تهديه فى مجاهل الحياة ، وتجعل من الامة وحدة متماسكة ونفوسا مشتركة الاحساس تترنم بأنبل الغايات .

والاديب إذا حمل لواء هذا النوع من العواطف فأوضح مبهمة ، وتألف هائمة كان من أقوى بواعث الاصلاح والتوجيه إلى خير المقاصد ، فان هذه العواطف الاجتماعية والقومية هى القلب النابض للشعب والقوة الحافزة لافراده وهى دليل على وحدة الامة واكتمال مقوماتها .

ومجال هذا النوع فسيح فى الموضوعات الوطنية والحوادث التاريخية والنهضات القومية وكذلك فى حياة الريف وما فيها من ذكريات وفى آمال الشعب ومقاصده. ولعل هذا النوع من العواطف يتطلب النشاط فى أدبنا الحديث . فهو دعامة للاصلاح الاجتماعى وللادب القومى المرتكز على حياتنا ، النابع من البيئة التى تنسج منها نفوسنا وتنقش على صفحاتها آثارنا

(٢) العواطف الصادقة :

ان من أهم صفات الادب أن يكون طبيعيا وأن يكون صادق الافصاح عن المعانى الحيوية دقيقا فى تصوير النزعات النفسية ومايتغلغل فى الصدر من ميول وآمال وأن يعرض لكل هذا فى غير مواربة أو تكلف .

أما الاديب الذى يلبس ثياب التصنع العاطفى فيجرى لسانه بما ليس فى جوانحه ويبدى سرورا لاينطوى عليه قلبه ، أو يتكلف حزنا لاتجيش به نفسه ، فان أدبه لايكون نابعا من القلب فلا يصادف مكانا من الوجدان .

على أننا لانبغى أن نحصر العواطف فى دائرة ضيقة يعجز فيها الاديب عن تصور آلام غيره وآماله وعن تعرف ماتجيش به النفوس من ترح أو فرح ، فانا نعتقد أنه يستطيع الاستعانة بخياله وبتجاربه على التعبير الصادق عن كل ذلك ، ولكننا نرى أن المعانى التى تصدر عن الطبع والخبرة أصدق افصاحا من التى تصدر عن التكلف وتنطوى على المحاكاة اللفظية الجوفاء .

وليس معنى هذا أن الأدب إذا خلا من العواطف التى تنبع من التجارب فقد خلا من عناصر القوة، فهناك منابع أخرى قد يرتكز الأدب عليها كالخيال والأسلوب والفكرة فيكون له من هذا قوة أو لون من الجمال .

(٣) العواطف المثقفة :

لسنا نشك فى أن للثقافة شأنا فى العواطف وفى الأدب العاطفى فان الثقافة ترشد العاطفة وتعصمها من الضلال والخلط إلى حد ما . والعاطفة إذا انبرت إلى ميدان العمل وهى عزلاء من التوجيه الفكرى والارشاد الثقافى كانت جوفاء

وأصبحت أشبه بالأنين المنبعث عن الأسى والحزن أو كالترنحات التى تعبر عن المرح ، أو كالسرور الذى لايعدو بهجة سطحية كابتهاج الصبى باجابة رغباته ، أو كالميول الهوجاء التى لا ترتكز على تفكير وليس لها مرشد من ثقافة .

وأقرب العواطف إلى الضلال والهيام الشارد هى تلك العواطف التى يخلو ميدانها من الثقافة فتكون كالزهرة الذابلة ، أو الأرض الجرز ، أو كصورة من الجص لطائر غرد ، أو كعزف موسيقى اضطربت أوتاره وبعدت عن التجانس والانسجام .

(٤) العواطف الراقية التى تتجه الى المثل العليا :

وهذا النوع هو أرقى أنواع العواطف وأجداها وأعظمها أثرا فى تحقيق نبيل الغايات التى تطمح اليها الانسانية ، وتتجه إليها النفس فى مظاهرها الثلاثة ، وهى الحق والخير والجمال ، ولكل ناحية من هذه النواحى عواطف تتجه إليها .

(٥) العواطف الفردية التى تتجلى فى أغلب الاشخاص أو فيهم جميعا . وذلك أن العواطف الفردية عرضة لأن تكون محصورة فى نفس صاحبها لايشعر بها غيره ، ولكن التشابه فى ألوان الحياة ، والتجانس فى مظاهرها وأحوالها ، يجعل من عواطف الشخص مرآة ونموذجا لعواطف غيره ، ولاسيا إذا كان صادق الحس صافى الوجدان .. ولهذا يكون هذا النوع الفردى سهل الاستساغة سريع الاتصال بالنفوس .

وان قدرة الأديب على التصوير تزيد هذا النواع من العواطف تأثيرا وقوة وتجعل مانقرؤه له مما يضمنه خلجات نفسه شديد الاتصال بنفوسنا كأنه يعبر عن عواطفنا وانفعالاتنا .

أما تلك العواطف الفردية التى لاتمثل إلا هياما سابحا ، أو حيرة شاردة ، فانها لاتحمل فى طياتها إلا خلجات مضطربة تتقاذفها أهواء النفس فتضل السبيل ولاتجد لها موئلا .

* * *

هذه بعض أنواع العواطف البارزة فى حياتنا وفى نفوسنا وهى من الألوان الوجدانية التى تمتزج بالأدب فتكون له كالماء للعود، وكالشذى للزهرة، وكالهواء للكائنات النامية، وتسرى فى نواحى الفن الأدبى فتسمو به وتجعل له شأنا فى حياة الافراد وحياة الأمم.

وقد تكبت بعض العواطف أو المظاهر الوجدانية فى نفوسنا فيضيق بها الصدر أو تعجز النفس عن احتمالها أو الاضطلاع باعبائها فيفسح لها الأدب فى المجال ويكشف عنها القناع ويخرجها إلى جو الحرية فتحلق مطمئنة وتظلل الحياة بوارف من النعيم والعيش الرغد. وقد ينفذ الأديب إلى مكامن آلامنا فيضفى عليها من فنه ما يبعث فيها بهجة وأملا واطمئنانا وسكينة تشرق فى الصدر وتنير جوانب النفس.

وإن العواطف أشبه بآلات التصوير وزجاجها الحساس، فهى تلتقط من ألوان الحياة ومظاهرها ماير وقها، ثم تعكس كل ذلك على صفحة النفس فتخرج صوراً تكون نماذج للحياة وما فيها، وللنفوس وما يتغلغل فى نواحيها.

* * *

لعلنا بعد هذا قد أوضحنا ما بين الأدب والعاطفة من صلة، وأظهرنا أن هذه الصلة إذا ارتكزت على نبيل العواطف جعلت من الأدب منهلا عذبا ومعينا فياضا لخير الانسانية.

فلننظر إلى الأدب العربي على هذا الأساس لنرى حظه من العواطف، وما الذى اشتمل عليه من ألوانها:

والأدب نوعان شعر ونثر وان حظ الشعر من العاطفة أوفى، وحظ النثر من الفكرة أوفر، فالعاطفة فى الشعر هى إحدى الدعامتين (والثانية هى الخيال) والفكرة عون لها. وعكس ذلك فى النثر. ولسنا نقصد بالشعر الكلام الموزون، بل نقصد معناه الفنى، ومن النثر على هذا ماهو شعر.

أما النثر فمنه طائفة من الرسائل فى أغراض شتى فى الشؤون الاجتماعية والحيوية

والسياسيه وفى النقد وفى الأحوال الخاصة كالشوق والاعتذار وغيرذلك. وهنالك أيضا المقامات ثم الأوصاف فى متنوع الأغراض كوصف مظاهر الطبيعة ووصف النفس ونزعاتها ، ولا تجد من هذه الأنواع فى النثر العربى إلا جانبا ضئيلا من العواطف . على أن ماظهر فيه منها إنما هو ذلك النوع من العواطف الفردية ۰ وان النوع الذى تجلت فيه بعض مظاهر الوجدان يعد أقرب الى الادب الموضوعى منه إلى الأدب الذاتى . أى أنه ينبع من الخارج ويمر بالمظاهر الخارجة عن النفس دون أن يمتزج بنفس الكاتب امتزاجا عميقا . وهو لذلك لايصور شخصية خاصة ولايصطبغ بلون من ألوان النفس الانسانية . ولعله إلى الصناعة اللفظية أقرب .

وأما الشعر فهو أوسع مجالا للعواطف .

ويقسم الافرنج الشعر الى قصصى وغنائى وتمثيلى ومنه الفكاهات والفاجعات . أما الشعر العربى فله فنون معروفة وهى الفخر والمدح والرثاء والهجاء والغزل والنسيب والوصف والاعتذار والمجون وغير ذلك .

وجمهرة الشعر العربى من النوع الغنائى الذى يترنم فيه الشاعر بالمفاخر والمآثر ويسرد صفات فردية لمن يمدحه أو يذمه . وإلى جانب هذا موجة جارفة من الحب الصناعى غمرت الشعر فى أغلب العصور العربية حتى أصبح من خصائص القصائد أن تفتتح بالغزل . وربما كان لهذا سبب ، وسنعرض للبحث فيه فى فرصة أخرى ، وموجة ثانية فى المدح استنفدت جهود معظم الشعراء . أما الاغراض الاجتماعية فلم يكن لها نصيب يستحق الذكر .

ونجد أمثلة للشعر الذى تبدو فيه العواطف فى الغزل وفى بكاء الاطلال وفى الرحيل والفراق وفى الاليف وخطاب الحمام وغير ذلك من العواطف الرقيقة الحزينة أو المتصلة بالآلام والآمال . وفى دراوين الشعراء وكتب الادب نماذج من ذلك .

وأنا نلاحظ بصفة عامة أن الشعر ينحو بما فيه من عواطف ناحية أقرب الى الصناعة وليست فى جملتها من العواطف المتغلغلة فى الحياة الاجتماعية .

* * *

هذا ، واذا أردنا أن نرسم للعاطفة طريقها القويم فى الادب وأن نغرى الادباء بالاهتمام بألوان خاصة من العواطف ، فان خير مايصل بنا إلى ذلك هو أن نستعيد إلى أذهاننا مايجب أن يحققه الادب من مقاصد وغايات :

نريد من الادب أن يصور النفس الانسانية تصويراً يشعرنا بنبرتها وخلجاتها حتى يكون ذلك مرآة لما فى نفوسنا وما يمكن أن يجول بخواطرنا .

نريد منه أن يرسم الاشياء من أصدق جهاتها وأوضح مظاهرها حتى نراها عن طريق عينى الاديب و نستجليها من طريق مشاعره وصائب نظره .

نريد منه أن يكون صورة للشخصيات التى تتفتح لها القلوب وتلقى لها النفوس بالزمام وتسير معها فى وديان ممتعة من الانسانية فى شتى مظاهرها وأحوالها .

نريد منه أن يكون خير معبر عما يحيط بنا من مظاهر طبيعية وأوضاع اجتماعية وعادات قومية حتى نجد صامت الحقائق ناطقا وكامن المعانى ظاهراً جليا .

نريد منه أن يكون عامل هداية للمثل العليا فى الحياة وهى : الحق والخير والجمال .

ونريد من الادب العاطفى أن يتجه الى النواحى التى أشرنا إليها ، وهى النواحى القومية أو الفردية التى تتجلى فى كل نفس ، لا العواطف الخاصة الهائمة .

هذا هو الذى نريد أن يتجه إليه أدبنا الحديث ، وهو الذى نريد أن نبحث عنه فى أدبنا القديم فى عصوره المختلفة ليتخذ منه المتعلمون والباحثون هاديا . ومن الوسائل التى تحقق هذا أن يكون الادب خير ترجمان للانسانيه وجليل صفاتها .

ولعل مااوضحنا من الوان العواطف يكون معوانا على بعض نواحى النقد الادبى وحافزاً على الاشادة بطائفة من فنون الادب نرقب لها النشاط .

ولعل هذا الجانب الوجدانى ينال مايستحق من عناية ورعاية من المهتمين بالنقد الادبى حتى يخرج النقد إلى ميدان فسيح ولا يكون مقصوراً على اللفظ والديباجة .

ولعل النقاد المخلصين للفن وهم دعائم الاصلاح يرسمون للنقد خطة قويمة حتى نظفر بخير ألوان الادب وأروع فنونه .

عبد الحميد حسن

(٢)

الصداقة والخصومة

وأثرهما في الحياة والأدب

للأستاذ عبد الوهاب عنانى الخطيب

١٦

تكلم أرسطو عن الصداقة فأوضح أنها ضرورية لحياة الانسان وأبان أهميتها للفرد وأهميتها السياسية وأنها شريفة كما هي ضرورية .

يقول أرسطو الصداقة هي ضرب من الفضيلة وهي فوق ذلك إحدى الحاجات الأشد ضرورة للحياة لأنه لاأحد يقبل أن يعيش بلا أصدقاء ولو كان له مع ذلك كل الخيرات . كل الناس على وفاق فى أن الاصدقاء هم الملاذ الوحيد الذى يمكننا الاعتصام به فى البؤس وفى الشدائد المختلفة الأنواع فحينما نكون شبابا نطلب إلى الصداقة أن تعصمنا من الزلات بنصائحها . وحينما نصير شيوخا نطلب اليها عنايتها ومساعدتها التى تقوم مقام نشاطنا حيث ضعف السن يجلب علينا كثيرا من أنواع الخور وأخيرا حينما نكون فى كل قوتنا نعتمد عليها لنتم بها بهاء أعمالنا .

بل قد يمكن القول بأن الصداقة هى رابطة الممالك وأن الشارعين يشتغلون بها أكثر من اشتغالهم بالعدل نفسه . ان وفاق الأهالى ليس عديم الشبه بالصداقة وان هذا الوفاق هو ما تريد جميع القوانين استقراره قبل كل شىء كما تريد قبل كل شىء نفى الشقاق الذى هو أضر عدو للمدنية . متى أحب الناس بعضهم بعضا لم تعد حاجة إلى العدل غير أنهم مهما عدلوا فانهم لاغنى لهم عن الصداقة .

الصداقة ليست فقط ضرورية ولكنها فوق ذلك جميلة وشريفة اننا نمدح أولئك الذين يحبون أصدقاءهم لأن المحبة التى يوليها المرء أصدقاءه يظهر لنا أنها احساس

من أجل الاحساسات التي يشعر بها قلبنا بل كثير من الناس يشتبه عليهم لقب الرجل الفاضل بلقب الرجل المحب .

— ١٧ —

بين أرسطو بعد ذلك أسباب الصداقة وفرق بينها وبين العطف ثم قسمها إلى ثلاثة أنواع وقارن بينها مقارنة محكمة فقال : —

بديهى أن كل شيء لا يمكن أن يكون محبوبا فالانسان لا يحب إلا الشيء القابل لأن يحب أى الخير أو الملائم أو النافع وبالنتيجة ضروب الحب والصداقات التى تشبهها يجب أن تختلف كذلك . وعلى ذلك يوجد ثلاثة أنواع من الصداقة تقابل فى العدد الأسباب الثلاثة للمحبة وهى صداقة الفضيلة وصداقة اللذة وصداقة المنفعة وبالنسبة لكل واحدة منها يجب أن يوجد تبادل حب لا يبقى مستورا عن واحد ولا عن الآخر من أولئك الذين يجدونه .

نعم تسمى عطوفة تلك القلوب التى تريد الخير للغير ولو لم تقابل بالمثل من ناحية ذلك الذى نحبه فاذا كان العطف متبادلا وجب أن يعتبر كالصداقة وقد يقع أن يعطف الانسان على أناس لم يكن رآهم أبدا ولكنه يفرض أنهم طيبون أو أنه يمكن أن يكونوا نافعين ويلزم لأجل أن يكونوا أصدقاء حقا أن يكون لديهم بعضهم لبعض احساسات العطف وأن يريدوا الخير بعضهم لبعض وألا يجهلوا الخير الذى يتعاوضون إرادته لسبب من الأسباب .

حقا ان الصديقين لا يكونان صديقين إلا بعد أن يحس كلاهما بادىء الأمر بعطف نحو الآخر لكن لا يكفى أن يكون بالمرء عطف ليكون محبا بل يقصر الامر على أن يتمنى المرء الخير لأولئك الذين يحس نحوهم العطف من غير أن يكون مع ذلك مستعدا لأن يعمل لهم أى شيء . ويمكن أن يقال أن العطف متى استطال مع الزمان ووصل إلى أن يكون عادة صار صداقة حقة .

والفرق بين العطف والصداقة أن العطف قد يكون فجائيا متولدا عن احساس سطحى أما الصداقة فتمتاز بالعمق والبقاء والعطف قد يكون نحو أناس بعيدين عنا كل البعد بل نحو أناس لم نرهم فى حياتنا مرة واحدة أما الصداقة فانها كالحب

تبتدىء بلذة النظر أو السمع لأنه إذا لم يعجب المرء رواء الشخص أو حديثه لا يمكنه أن يحب، ولا يكون من الحب إلا متى أسف المرء على غيبة شخص ورغب فى حضرته والعطف تثيره الفضيلة واستحقاق كيفما اتفق كلما ظهر شخص لآخر بمظهر الشرف أو الشجاعة أو الأريحية أو أى كيف من هذا القبيل والصداقة يولدها الخير واللذة والمنفعة .

— ١٨ —

الناس المتحابون يريدون الخير بعضهم لبعض فى نفس معنى السبب الذى هم به متحابون فالذين يحب بعضهم بعضا للمنفعة يتحابون لا لذواتهم بالضبط ولكن من جهة أنهم يصيبون خيرا ما وكسبا ما من علاقاتهم المتبادلة ومتى أحب الانسان بالفائدة وللمنفعة فانه لا يطلب فى الحقيقة إلا خيره الشخصى ولا يحب من يحبه من أجل صفاته الممتازة بل من أجل كونه نافعا .

الصداقة بالمنفعة يشبه أن تتولد على الخصوص من المفارقة مثلا بين الفقير والغنى بين الجاهل والعالم كما لو نقص المرء شىء فهو مستعد لتحصيله بأن يعطى شيئا آخر عوضا له وهى خليقة بنفوس التجار وتوجد على وجه أخص فى الناس المسنين فان الشيخوخة إنما تطلب ماهو نافع ليس غير والمنفعة يمكن أن تسبب الصداقة بين الاشرار كما يمكن أيضا أن تربط الاخيار برابطة الصداقة مع الاراذل وتصير أولئك الذين ليسوا من هؤلاء ولا من هؤلاء أصدقاء للأولين أو الآخرين بلا تمييز ونلاحظ أن أفلاطون قد صرح أن الصداقة لا تأتى بين الأشرار بعضهم وبعض ولا بينهم بين الاخيار فاذا اضفنا الى ذلك أن أرسطو يعتبر هذه الصداقة عرضية وبالواسطة وليست غير ذات نسبة إلى الصداقة بالفضيلة أمكن القول بأن الفيلسوفين العظيمين قد التقيا فى هذه النقطة .

لاحاجة بالمرء إلى كثير من الاصدقاء النافعين لأنه من الصعب عليه أن يدفع المقابل ويعترف بجميل جميع صنوف المعروف متى كان ما يسدى اليه كثيرا وقد لا تكفى الحياة بأسرها لهذا الغرض أن أصدقاء أكثر عددا مما يلزم للحاجات العادية للحياة لا فائدة منهم بل قد يصيرون عائقا للسعادة .

الشكاوى والمعاتبات لاتحصل إلا فى الصداقة بالمنفعة وحدها أو بعبارة أخرى إنما تحصل أكثر مايكون فى هذه الصداقة فانه نظرا إلى أن الصديقين لايرتبطان إلا لمنفعة فانه لكليهما دائما حاجة إلى أكثر مما له ويتصور أنه يأخذ أقل مما ينبغى فيشتكى حينئذ من أنه لم يجد كل مايرغب وكل ما كان يظن أنه يستحقه حقا وعدلا

ان الصدافات من هذا النوع تنقطع بغاية السهولة لأن هؤلاء الذين يزعمون أنفسهم أصدقاء لايثبتون طويلا مشابهين لانفسهم ومتى صار الاصدقاء غير نافعين انقطع حبهم حالا أن النافع أو المفيد لاثبات له بل هو يتغير من لحظة إلى أخرى على أتم وجه وإذا انعدم السبب الذى صيرهم أصدقاء انعدمت الصداقة أيضا مع الصلة الوحيدة التى كانت كونتها .

— ١٩ —

والذين يحب بعضهم بعضا للذة لايتحابون لذواتهم بالضبط أيضا بل من جهة أنهم ينالون سرورا أو يدفعون ألما من جراء هذه الصداقة فاذا أحبوا الناس أولى الاخلاق السهلة فما ذلك بسبب خلق هؤلاء الناس نفسه بل لاجل اللذة التى يجلبها لهم هؤلاء الاشخاص ليس غير .

أهل الثراء يبتغون أصدقاء اللذة وإذ يفكرون فى لذتهم لايبغون إلا أناسا محبوبين هينين أو أناسا حذاقا مستعدين دائما أن ينفذوا مايؤمرون به والمساواة بين الطرفين شرط فى انعقاد مثل هذه الصداقة .

الصداقة باللذة هى أشبه بالصداقة الصحيحة متى كانت الظروف التى تولدها هى واحدة من جانب ومن آخر وان يسر كلا الصديقين بصديقه وأن يعجبهما لهو واحد وهذا هو الذى يوجد صداقات الشبان لأنه على الخصوص فى هذه الصداقات يكون السخاء وكرم القلب ولكن يلاحظ أنه مع تقدم السنين تتغير اللذات وتصير غير ماكانت بالمرة لهذا يعقد الشبان علاقاتهم بغاية السرعة وينقضونها بسرعة لاتقل عن الاولى . ان الصداقة تتغير مع اللذة التى كانت ولدتها وأن تغير هذه اللذة سرعان مايكون .

يمكن أن توجد اللذة صداقة بين الأشرار بعضهم وبعض وهنا تتحول اللذة

إلى شرور وآثام لا قبل للمجتمع باحتمالها وسرعان ما ينقلب الصديقان بعضهم لبعض عدواً وكما اعتبر أرسطو صداقة المنفعة عرضية وبالواسطة اعتبر صداقة اللذة عرضية وبالواسطة

لا محل للمنازعات فى الصداقة باللذة لأن كلا من الصديقين له ما يرغب فيه على السواء إذا لم يريدا إلا لذة العيشة معاً ومن السخرية كل السخرية أن يلوم أحدهما صديقه على كونه لا يلذ بهذه العشرة لأنه يمكن بغاية السهولة أن يتقطع عن العيشة معه .

— ٢٠ —

الصداقة الكاملة هى صداقة الناس الذين هم فضلاء والذين يتشابهون بفضيلتهم لأن اولئك يريدون الخير بعضهم لبعض من جهة أنهم أخيار اولئك الذين لا يريدون الخير لأصدقائهم إلا لهذه الأسباب الشريفة هم الأصدقاء حقا اولئك بأنفسهم بطبعهم الخاص لا بالغرض يكونون على هذا الاستعداد السعيد ومن ثم يجىء أن صداقة هذه القلوب الكريمة تبقى ما بقوا هم أنفسهم أخيارا وفضلاء

يمكن أن يقال أنهم فوق ذلك نافعون بعضهم لبعض ويمكن أن يزاد أيضا أنهم ملائمون بعضهم لبعض إذا كانوا أرضياء على الاطلاق

فى هذه الصداقة توجد الفضيلة وتوجد المنفعة وتوجد اللذة لذة الملاءمة وحينئذ فلا شىء فى الدنيا أحب من هذا إنما توجد الصداقة غالبا بين الأشخاص الذين هم على هذه الأهلية وهى فيهم أكمل ما تكون

على أن من المفهوم بالبداهة أن تكون الصداقات بمثل هذا النبل نادرة جدا لأن الناس الذين هم على هذا الخلق أيضا قليل جدا ولعقد هذه العلاقات يلزم زيادة على ذلك الزمان والعادة وبعض الشروط الأخرى

— ٢١ —

وأنت تعتبر صديقا ذلك الذى يريد لك الخير إن ظاهرا وإن حقا وبفعله معك وهو يقصد به قصدك ليس غير وكذلك هذا الذى لا يرغب فى حياة صديقه وسعادته

إلا من أجل هذا الصديق ذاته وقد يقال ايضا أن الصديق هو ذلك الذى يعيش معك والذى يتحد وإياك فى الأذواق والذى تسره مسراتك وتحزنه أحزانك

وأهم مميز للأصدقاء هى المعيشة المشتركة فمتى كان المرء فى العسر رغب فى هذه المعيشة لما يصيبه فيها من المنفعة ومتى كان فى اليسر رغب فيها من أجل السعادة لقضاء أيامه مع الذين يحبهم ولا شىء أقل موافقة للأصدقاء من العزلة أن العمل الذى يجعله المرء قوام حياته الخاصة أو الذى يجد فيه أكبر لذة هو أيضا ذلك الذى يريد كل واحد أن يشاطره فيه أصدقاؤه وهو يعيش معهم على ذلك فالبعض يأكلون ويشربون معا وآخرون يصطادون معا وآخرون يروضون أنفسهم معا على دروس الفلسفة وعلى جملة من القول كلهم يقضون أيامهم فى أن يباشروا معا ما هو ألذ لهم فى المعيشة .

على أنه فى الأحوال التى تكون فيها المسافة بين الأشخاص بعيدة جدا من جهة الفضيلة أو من جهة الرذيلة أو من جهة الثروة أو من جهة أى شىء آخر لا يمكن أن توجد الصداقة بمعناها الصحيح بل قل أن تنعقد ويمكن أن يشاهد هذا بالنسبة للملوك فان الانسان هو أنزل منهم فى أمر الثروة الى حد أنه لا يستطيع حتى أن يريد أن يكون صديقهم كما أن الناس الذين ليس لهم مكانة لا يفكرون فى إمكان صيرورتهم أصدقاء للرجال الاعلين والأحكمين

متى كان الصديقان متساويين لزم بمقتضى هذه المساواة نفسها أن يكونا متساويين فى المحبة التى يحملانها وفى سائر الباقى ولكن متى كانا غير متساويين فلا يبقيان صديقين إلا بمحبة يجب أن تكون متناسبة مع تفوق أحد الاثنين

ولما كانت الصداقة منحصرة أكثر فى أن يحب المرء من أن يكون محبوبا وكان الناس الذين يحبون أصدقاءهم فى أعيننا حقيقين بالمدح يظهر أن الحب يجب أن يكون هو الفضيلة الكبرى للأصدقاء وينتج أنه كلما كانت المحبة تبنى على الاستحقاق الشخصى لكل واحد من الصديقين كان الأصدقاء أوفياء وكانت علاقاتهم متينة وباقية .

— ٢٢ —

خاصة الناس الفضلاء أن يقوا أنفسهم من الخطايا وأن يعرفوا وقت الحاجة أن يوقفوا خطايا أصدقائهم وذلك فيما يظهر أنبل عمل تستمر به الفضيلة مع الاصاقاء فى أبهى حلاها .

والرجل الفاضل يعمل كثيراً من الأشياء لأصدقائه ولوكافه ذلك فقدان الحياة أنه يهمل أمر الأقوال والكرامات وعلى جملة من القول كل هذه الخيرات التى يتنازع فيها العامة غير مستبق لنفسه الاشرف عمل الخير أنه يفضل كثيرا استمتاعا حاداً ولو لم يدم إلا بعض لحظات على استمتاع بارد يبقى زمانا أطول يؤثر أن يعيش فى المجد سنه واحدة على أن يعيش فى الخمول سنين عديدة يوثر عملاواحدا جميلا وعظيما على طائفة من الأعمال العاميه ذلك هو بلا شك ما يدفع اولئك الرجال الكرام إلى إلى أن يضحوا بحياتهم عندما يلزم أنهم يستبقون لأنفسهم أشرف نصيب وأجمله وينزلون عن ثروتهم مع الارتياح اذاكان خرابهم يمكن أن يغنى أصدقاءهم فللصديق الثروة وأما هو فله الشرف وهو أعظم منها مائة مرة ومن باب أولى يكون شأنه كذلك بالنسبه للكرامات وللسلطان فان رجل الخير يترك كل ذلك الى صديقه لان هذه النزاهة هى وحدها فى عينه الجميلة والجديرة بالثناء .

وينبغى أن يطالع المرء أصدقاءه التعساء دون أن يدعى الى ذلك ودون أن يحركه لذلك الا حركة قلبه لان واجب الصديق هو أن يسدى المعروف الى أصدقائه وعلى الخصوص متى كانوا فى حاجة اليه ولا يطلبونه هذا اجمل بالصديقين وأحلى لهما ومتى استطاع لزمه دائما أن يؤدى على حسب الاحوال كل ما قد قبل من أصدقائه وأن يبرىء ذمته من الديون التى استدانها سواء كانت مادية أم أدبية وأن تكون نيته السليمة هى الدافع له على هذا الاداء وعليه فى كل مناسبة أن يمنح أصدقاءه صنوف الرعاية الواجبة لهم بكل صراحة واخلاص

— ٢٣ —

تعرض أرسطو بعد ذلك لمسألة شائكة وهى قطع الصداقات فتساءل عما اذا

كانت علاقات الصداقة يجب أن تقطع أو أن يحتفظ بها حينما يصبح الناس اغيار ماكانوا بعضهم نحو البعض الآخر أم أنه لاشيء من الضرر فى القطع حين يصير الناس الذين لم يكونوا ليتحابوا الا بواسطة المنفعة أو اللذة لم يبق عندهم ما يؤتونه بعضهم بعضا. لما كان هذا موضوع صداقتهم الوحيد كان واضحا كل الوضوح أن ينقطع تحابهم وكل ما يمكن أن يشتكى منه هو ان واحدا لا يحب الا بالمنفعة أو باللذة يوهم مع ذلك أنه يحب حبا قلبيا وحينئذ متى انخدع احد الاثنين وافترض انه محبوب بالقلب فى حين أن الآخر لم يفعل شيئا يعطيه هذا الفهم لا ينبغى له ان يلوم الا نفسه لكن اذا انخدع بموارية صديقه المزعوم فله كل الحق فى أن يشكو من خادعه.

ولنفرض الحالة التى عقدت فيها العلاقة مع رجل بسبب أنه كان قد ظن طيبا وأنه بعد ذلك قد صار رذيلا أو أنه بحسب الظاهر فقط قد صاره. فهل يستمر المرء فى أن يحبه؟ هل يلزم القطع على الفور أم هل يجب التفصيل وأن يقطع لا مع الجميع ولكن مع أولئك الذين قد صار فساد أخلاقهم منذ الآن عضالا مادام هناك أمل فى اصلاحهم فينبغى مساعدتهم على نجاة فضيلتهم بعناية تفوق العناية التى تبذل لاصلاح ثروتهم لأن تلك الخدمة هى أشرف وأحق بالصداقة الحقة. فى هذه الحالة لاخطأ على المرء فى أن يقطع لأنه لم يكن هذا هو الرجل الذى أريد اتخاذه صديقا ومذ تغير هكذا تغيرا تاما ولم يبق بعد فى الامكان نجاته برده الى ماكان فما على الانسان إلا أن يبتعد عنه.

افرض أيضا حالة أخرى أن يبقى أحد الصديقين ماكان والآخر بصيرورته أشد ميزة من الجهة الاخلاقية وصل إلى أن يفوقه بكثير فى الفضيلة فهل يجب على هذا أن تستمر صداقته؟ أم هل هذا شيء غير ممكن؟ وتصير الصعوبة واضحة كل الوضوح متى كانت المسافة بين الصديقين كبيرة جدا كما يقع فى الصدقات المعقودة منذ الطفولة فاذا بقى أحدهما طفلا بعقله وقد صار الآخر رجلا مليئا بالقوة والكفاءة، فكيف يمكن أن يبقيا صديقين ما دام أنهما لاتروقهما بعد الاشياء بعينها ولم يكن لاحدهما بعد ما للآخر من الافراح والاتراح بعينها لن يكون

بينهما بعد تبادل الاحساسات التى بدونها لاصداقة ممكنة. ولكن أليس من المعاملة القاسية أن تكون معه كما لو لم يكن صديقك أبدا؟ أم ينبغى بالاولى الاحتفاظ بذكرى الصداقة التى أحبها المرء فى الماضى كما أن الانسان يعتقد واجبا عليه أن يكون أشد عطفا على أصدقائه منه على الاجانب كذلك يجب أن يحابى بعض الشىء ذلك الماضى الذى شهد ارتباطهم الا أن يكون القطع مع ذلك قد جاء من افراط فى فساد لا يغتفر

— ٢٤ —

فرغنا مما نحن فى حاجة اليه من نظرية الصداقة عند أرسطو ويمكننا أن نقول كما قال سانتهلير انه استوعب هذا الموضوع الواسع من جميع جهاته بحذق وسعة نظر لايكادان يتركان بعده تعقيبا لمعقب ولا زيادة لمستزيد وانه يكون من الظلم اغفال ما بهذه النظريات من السمو ومن الحقيقة العملية فان كل مايقوله أرسطو حقيق بالذكر والتنبيه يسير علينا أن نظن أن هذه الايضاحات الخاصة بالاخلاق الاجتماعية لم تكن معروفة عند الاقدمين وأن نسندها إلى أزمنة متأخرة لترضى ما بنا من ميل للفخر. ولكنه يرى عند قراءة أرسطو أن هذا ضلال بعيد، ان الفلاسفة قد كانوا التراجمة الامناء لجميع الاحساسات التى يلهمنا الطبع اياها والتى لم يقررها القانون إلا بعد الابحاث الفلسفية بزمان طويل .

— ٢٥ —

أما بيدبا فيلسوف الهند وحكيمها فقد عرض للصداقة بين فصول كتابه الخالد «كليلة ودمنة» ومسها مسا لطيفا مقبولا فى أسلوب رائع جذاب وضرب المثل تلو تلو المثل لهذه الروابط الاجتماعية الخطيرة فى براعة منقطعة النظير

فباب الاسد والثور مثل لمتحابين يقطع بينهما الكذوب المحتال حتى يحملها على العداوة والبغضاء

وباب الحمامة المطوقة مثل لاخوان الصفاء كيف يبتدىء تواصلهم ويستمتع بعضهم ببعض

وباب البوم والغربان مثل للعدو الذى ينبغى ألا يغتر به وان أظهر تضرعا وملقا

وباب الجرذ والسنور مثل لرجل كثر أعداؤه وأحدقوا به من كل جانب فأشرف على الهلاك فالتمس النجاة والمخرج بموالاة بعض أعدائه ومصالحته فسلم من الخوف وأمن ثم وفى لمن صالحه منهم .

وباب الاسد والشغبر الناسك مثل للملك الذى يراجع من أصابته منه عقوبة من غير جرم أو جفوة من غير ذنب

ومن سوء الذوق الادبى أن أحاول تلخيص هذه الابواب وكل ما أستطيع عمله أن أجمع ماتفرق فى ثنايا الكتاب مما نحن بصدده من ضروب الاخلاق الخاصة بالصداقة .

تعرض بيدبا للاشخاص الذين ينبغى للانسان أن يصاحبهم ولاولئك الذين ينبغى أن يبتعد عنهم فقال، الزم ذا العقل وذا الكرم واسترسل اليهمـا وإياك ومفارقتهما ،واصحب الصاحب اذا كان عاقلا كريما او عاقلا غير كريم فالعاقل الكريم كامل والعاقل غير الكريم أصحبه واحذر من سوء اخلاقه وانتفع بعقله والكريم غير العاقل الزمه ولا تدع مواصلته وانتفع بكرمه وانفعه بعقلك. والفرار كل الفرار من اللئيم الاحمق،

ومن الناس لاينبغى تركه على حال من الاحوال وهو من عرف بالصلاح والكرم وحسن العهدة والشكر والوفاء والمحبه للناس والسلامة من الحسد والبعد من الاذى والاحتمال للاخوان والاصحاب وان ثقلت عليه منهم المئونة

أن صحبة الاخيار تورث الخير كالريح اذا مرت بالطيب حملت طيبا وصحبة الاشرار تورث الشر وربما أورثت صاحبها سوء ظن بالاخيار وشر الاخوان الخاذل لاخيه عند النكبات والشدائد وشر منه من التمس منفعة نفسه بضر اخيه ومن كان غير ناظر له كنظره لنفسه او كان يريدان يرضيه بغير الحق لاجل اتباع هواه وكثيرا مايقع ذلك بين الاخلاء .

— ٢٧ —

ويبدبا بقسم الصداقة تارة الى صداقة نفس وصداقة يد . وتارة الى صداقة طواعية وصداقة اضطرار فيقول: ان اهل الدنيا يتعاطون فيما بينهم امرين ويتواصلون عليهما وهما ذات النفس وذات اليد فالمتبادلون ذات النفس هم الاصفياء واما المتبادلون ذات اليد فهم المتعاونون الذين يلتمس بعضهم الانتفاع ببعض ومن كان يصنع المعروف لبعض منافع الدنيا فانما مثله فيما يبذل ويعطى كمثل الصياد والقائه الحب للطير لايريد بذلك نفع الطير وانما يريد نفع نفسه فتعاطى ذات النفس افضل من تعاطى ذات اليد

ويقول : ان الصديق صديقان : طائع ومضطر وكلاهما يقتسمان المنفعة ويحترسان من المضرة فأما الطائع فيسترسل اليه ويؤمن فى جميع الاحوال واما المضطر ففى بعض الاحوال يسترسل اليه وفى بعضها يتحذر منه

وهناك صداقة ظاهرة باطنها عداوة كامنة .وهى اشد من العداوة الظاهرة ومن لم يحترس منها وقع موقع الرجل الذى يركب ناب الفيل المغتلم ثم يغلبه النعاس فيستيقظ تحت فراسن الفيل فيدوسه فيقتله وانما سمى الصديق صديقا لما يرجى من نفعه وسمى العدو عدوا لما يخاف من ضرره والعاقل اذا رجا نفع العدو اظهر له الصداقة .واذا خاف ضر الصديق اظهر له العداوة وفى الحالة الاولى ينطبق بيت المتنبى

ومن نكد الدنيا على الحر ان يرى عدواً له ما من صداقته بد

— ٢٨ —

ويتحدث بيدبا عن حلاوة الصداقة وما يجب على الصديق لصديقه فيقول .

لاشىء من سرور الدنيا يعدل صحبة الاخوان ولا غم فيها يعدل البعد عنهم وان اولى اهل الدنيا بشدة السرور من لا يزال ربعه من اخوانه واصدقائه من الصالحين معمورا ولا يزال عنده منهم جماعة يسرهم ويسرونه . ويكون من من وراء امورهم وحاجاتهم بالمرصاد والرجل ذو الراى يعرف حال صاحبه وباطن امره مما يظهر له من دله وشكله والعاقل لا يعدل بالاخوان شيئا فالاخوان هم الاعوان على الخير كله .والمواسون عند ما ينوب من المكروه ومن عاش ذا مال وكان ذا فضل وافضال على اهله واخوانه .فهو وان قل عمره طويل العمر

وعلى العاقل ألا يكتم صاحبه نصيحته وان استقلها وألا يكون كلامه كلام عنف وقسوة بل كلام رفق ولين فاذا أخبره ببعض عيوبه لا يصرح بحقيقة الحال بل يضرب له الامثال ويحدثه بعيب غيره فيعرف عيبه فلا يجد صاحبه الى الغضب عليه سبيلا وخير الاخوان والاعوان أقلهم مداهنة فى النصيحة .

ومن لم يقبل من نعمائه مايثقل عليه مما ينصحون له به لم يحمد رأيه كالمريض الذى يدع مايبعث له الطبيب ويعمد إلى مايشتهيه .

— ٢٩ —

وهناك حالات تتعرض فيها الصداقة للمحنة لم تغب عن بيدبا كما لم تغب عن عن أرسطو وكما كان لصداقة الفضيلة فى نظر أرسطو صفة الدوام تقريبا كذلك كان لصداقة الصالحين فى نظر بيدبا مثل هذا الصفة أن العقلاء الكرام لا يبتغون على معروف جزاء والمودة بين الصالحين سريع اتصالها بطىء انقطاعها ومثل ذلك مثل الكوز من الذهب بطىء الانكسار سريع الاعادة هين الاصلاح ان أصابه ثلم أو كسر والمودة بين الاشرار سريع انقطاعها بطىء اتصالها ومثل ذلك مثل الكوز من الفخار سريع الانكسار ينكسر من أدنى عيب ولا وصل له أبدا والكريم يود الكريم واللئيم لا يود أحدا إلا عن رغبة أو رهبة .

ومهما يكن من شىء فان الظروف قد تدعو الى تغير القلوب والمودة والعداوة لا تثبتان على حالة واحدة أبدا وربما حالت المودة الى العداوة وصارت العداوة ولاية وصداقة ولهذا حوادث وعلل وتجارب وذو الرأى يحدث لكل مايحدث لذلك رأيا جديدا أما من قبل العدو فبالباس وأما من قبل الصديق فبالاستئناس .

فاذا دخل قلب الصديق من صديقه ريبة فليأخذ بالحزم فى التحفظ منه وليتفقد ذلك فى اخطائه وحالاته فان كان مايظن حقا ظفر بالسلامة وان كان باطلا ظفر بالحزم ولم يضره ذلك .

ولعمرى مايستطيع أحد أطال صحبه صاحب أن يحترس فى كل شىء من أمره ولا أن يتحفظ من أن يكون منه صغيرة أو كبيرة يكرهها صاحبه ولكن الرجل ذا العقل وذا الوفاء إذا سقط عنده صاحبه سقطة نظر فيها وعرف مبلغ خطئه عمدا كان أو خطأ ثم ينظر هل فى الصفح عنه أمر يخاف ضرره وشينه فلا يؤاخذ صاحبه بشىء يجد فيه الى الصفح عنه سبيلا .

غير أنه من أعجب العجب أن يطلب الرجل رضا صاحبه ولا يرضى وأعجب من ذلك أن يلتمس رضاه فيسخط فاذا كانت الموجدة عن علة كان الرضا موجودا والعفو مأمولا. وان كانت عن غير علة انقطع الرجاء. لان العلة ان كانت الموجدة فى ورودها كان الرضا مأمولا فى صدورها وهنا ينطبق بيت العباس بن الاحنف:

لكن مللت فلم تكن لى حيلة صد الملول خلاف صد العاتب

ومن اتخذ صديقا وقطع أخاه وأضاع صداقته حرم ثمرة اخائه وأيس من نفعه الاخوان والاصدقاء.

عبد الوهاب عثمانى الخطيب

النقد اللغوى

للأستاذ على السباعى

— ٤ —

ذكرت تحت هذا العنوان فى ثلاث المقالات السابقة خمس عشرة كلمة وأرجو مرة أخرى أن يتريث النقاد واللغويون فى تخطيئهم أو تصويبهم وألا يجعلوا هجيراهم فى بحوثهم اللغوية المعاجم فقط فكم من فصيح مشهور ند عنها فلم تقيده أقلام مؤلفيها والكمال لله وحده وها كم ما عثرت عليه فى أثناء قراءتى مسلسلا بالأرقام مع ما سلف :

١٦ – تجاهل – قالت مجلة المجمع فى الجزء الرابع « إن هذا الفعل لازم لأنه بمعنى أظهر الجهل وليس بجاهل ، وفى الحق أن ما أفاد مفهومه صفة لا يتعدى أثرها لغير الموصوف بها كتغافل وتعامى وتصام لازم أما إذا تعدى أثرها كما فى الأفعال: تنازعنا المسألة ، وتجاذبنا الحديث ، وتناسينا الماضى ، وتقارضنا الثناء ، فمتعد لأنه مطاوع لمتعد لاثنين والأصل جاذبته الحديث وهكذا والفعل تجاهل غير مطاوع لمتعد لاثنين وورد فى المعاجم بمعنى ادعى الجهل وليس به فهو لازم لكنه ورد فى كتب الأدب متعديا بمعنى جهل كما ورد ضده تعالم متعديا بمعنى علم

ففى جمهرة الرسائل لأحمد صفوت الأستاذ بدار العلوم ص ١٩٢ من الجزء الاول نقلا عن الجزء الرابع من تاريخ الطبرى ص ١٥٨ كتاب لسيدنا عمرو بن العاص يرد فيه على أرطبون قائد الروم بالشام .

« جاءنى كتابك وأنت نظيرى ومثلى فى قومك لو أخطأتك خصلة تجاهلت فضيلتى وقد علمت أنى صاحب فتح هذه البلاد وأستعدى عليك فلانا وفلانا وفلانا — لوزرائه — فأقرئهم كتابى ولينظروا فيما بينى وبينك ». —

ويستأنس على صحة ورود تجاهل متعديا بمعنى جهل بأمور ثلاثة

١ — فى ترجمة مجنون بنى عامر فى الأغانى ص ٥٩ من الجزء الثانى طبع دار الكتب خبر حبيبين يتعاتبان فيقول لها :

غدرت ولم أغدر وخنت ولم أخن .·. وفى بعض هذا للمحب عزاء
جزيتك ضعف الود ثم صرمتنى .·. فحبك من قلبى إليك أداء

وتقول له :

تجاهلت وصلى حين جدت عمايتى .·. فهلا صرمت الحبل إذ أنا أبصر
ولى من قوى الحبل الذى قد قطعته .·. نصيب وإذ رأيى جميع موفر
ولكنما آذنت بالصرم بغتة .·. ولست على مثل الذى جئت أقدر

ب — وفى معجم الأدباء صفحة ١٦٢ من الجزء الثامن عشر خطاب لابى محمد ابن الحسن الحاتمى شافه به المتنبى ليدفعه عن غروره ، ويوضح عيوب شعره قال فى تهكم لاذع وسخرية ساخرة ، ياهذا إذا جاءك رجل شريف فى نسبه تجاهلت نسبه ، أو عظيم فى أدبه صغرت أدبه ، أو متقدم عند سلطان لم تعرف موضعه : فهل العز تراث لك دون غيرك ؟ كلا والله لكنك مددت الكبر سترا على نقصك ، وضربته رواقا دون جهلك الخ ولم يعقب أحد من النقاد على مافى الاغانى أو فى خطاب الحاتمى .

حـ — وقد يستأنس أيضا بأن العرب تحمل الضد على الضد — وإن كان السيوطى فى كتابه الاقتراح جعل هذا النوع من قياس الأدون وما دام قد ورد فى المعاجم تعالم بمعنى علم متعدية فلا مانع من قياس ضدها عليها فيكون تجاهل بمعنى جهل متعدية

هذا وفى النفس شىء من تضييق مجلة المجمع وقصرها استعمال تعالم على التركيب الوارد فى المعاجم (تعالمه الجميع علموه) فخطأت من يقول تعالم الرجل المسألة ورأى أنها حجرت الواسع ومنعت القياس من غير موجب فما دام تعالم بمعنى علم

وعلم فاعله مفرد أو مثنى أو جمع ففاعل ماهو بمعناه كذلك ولا داعى لان يدل الفعل على التشارك مادمنا قد سلمنا أنه بمعنى علم ،

إذاً لا عليك ياخالد الادب ، وأمير شعراء العرب حين قلت رحمك الله

قلن تجاهلته .·. ذلك رب القلم

١٧ - أنجب — لم ترد أنجب فى المعاجم متعدية صراحة بل فسر بعضها أنجب الرجل أتى بنجيب وبعض آخر : ولد نجيبا وتفسيرها الثانى يقضى بتعديها ولكن المحافظين الذين يتشددون ويأبون إلا أن يأخذوا بالنصوص الصريحة عابوا استعمالها متعدية ما أغفلت المعاجم تعديها إلا أنها وردت فى شعر حفص الاموى وهو شاعر إسلامى عاصر كثير عزة وعاش حتى أوائل الدولة العباسية فقال فى سياق أقامه هشام بن عبد الملك وحاز فيه فرسه الزايد قصب السبق .

إن الجواد السابق الامام خليفة الله الرضى الهمام

أنجبه السوابق الكرام من منجبات مالهن ذام

وفى البيت الثانى كلمة السوابق تضاف إلى الكلمات التى عدوا جمعها وصفا لمذكر عاقل على فواعل شاذا ، ويستأنس على تعدى أنجب أيضا صراحة .

ا — بما ورد فى الأغانى ص ١٥ من الجزء الثالث عشر طبع الساسى عن على ابن الخليل وهو شاعر عباسى اتهم بالزندقة مع خليله صالح بن عبد القدوس فقبض عليهما الرشيد وقتل صالحا لاعتقاده أنه مصر على عقيدته لقوله .

والشيخ لايترك أخلاقه حتى يوارى فى ثرى رمسه

وعفا عن على وأجازه ، ووفد على بن الخليل هذا على يزيد بن مزيد الشيبانى وقد ولد له ولد فقال تسمع أيها الامير تهنئة بالفارس الوارد ؟ فتبسم يزيد وقال هات فأنشده .

يزيد يابن الصيد من وائل أهل الرياسات وأهل المعال

يا خير من أنجبه والد ليهنك الفارس ليث النزال

جاءت به غراء ميمونة والسعد يبدو فى طلوع الهلال

عليه من معن ومن وائل سيما تباشير وسيما جلال

ب - بما جاء فى مجمع الأمثال للميدانى ص ٢٠٥ من الجزء الثانى فى شرح المثل (أنجب من فاطمة بنت الخرشب الأنمارية) ، ولا يقولون منجبة حتى تنجب ثـلاثة .

ولا مانع بعد ما تقدم من تعديها صراحة ومتع الله أستاذنا علياً الجارم بك بالعافية والسعادة وأبقاه شاعر العروبة وصيتها إذ يقول فى حفلة العيد الثنوى لوزارة المعارف عن لسان المعارف .

أنجبت للبلاد أبطال عزم هم دروع البلاد فى الازمات

دعوا الشعب للعلا فرأينا خير شعب أجاب خير الدعاة

أنجبت كل عالم بهر الكو ن بآيات علمه البينات

أنجبت كل شاعر عبقرى صادق الحس بارع اللفتات

١٨ - قد لا يكرن - أنكرت مجلة المجمع إدخال قد على الفعل المنفى وقالت إنه لم يرد عن كلام العرب ونقلت عن ابن هشام فى المغنى (وأما قد الحرفية فمختصة بالفعل المتصرف الخبرى المثبت الخ) ولكن فى اللسان فى مادة « ذام » بمعنى العيب أو العاب يقول أنس بن نواس المحاربى وهو شاعر فارس .

وكنت مسودا فينا حميدا وقد لا تعدم الحسناء ذاما

واعتبرت هذا مما تركته المعاجم لأنها لم تذكره فى مادته فمثله مثل كسول للمذكر إذ لم تذكره المعاجم فى مادة كسل وانما ذكره اللسان فى مادة زمل وروى له شاهدا من قول أحيحة بن الجلاح .

فلا وأبيك مايغنى غنائى من الفتيان زميل كسول

وقد حفزنى إلى هذا الاستطراد ماقرأته فى مجلة الكتاب فى عدد مايو ص ٥٠١ من أنكار الأخ الفاضل محمد عبد الغنى حسن الشاعر الكاتب كلمة كسول للمذكر والصواب أنها للمذكر والمؤنث .

كذلك روى السيوطى فى شواهده على المغنى للنمر بن تولب وهو شاعر مخضرم أدرك الأسلام فأسلم وحسن أسلامه وعمر وكان جوادا واسع القرى كثير الأضياف وهاباً لماله ولما كبر كانت أوامره : أصبحوا الركب ، أعينوا الركب ، اقروا ،

انحروا للضيف ، أعطوا السائل ، تحملوا لهذا فى حمالته كذا وكذا لعادته بذلك قال :

فان المنية من يخشها فسوف تصادفه أينما
فان تتخطاك أسبابها فان قصاراك أن تهرما
وأحبب حبيبك حبا رويدا فقد لايعولك أن تصرما

وفى البيت الأول اكتفاء وهو حذف فعل الشرط وجوابه والاقتصار على الأداة أينما وفى الثانى رفع الفعل تتخطى بعد أداة الجزم أو إشباع الفتحة حتى تولدت عنها الألف وفى الثالث الشاهد على ورود الفعل المنفى بعد قد وفيه أيضا عقد لحديث رواه أبو هريرة والطبرانى « أحبب حبيبك هونا ماعسى أن يكون بغيضك يوما ما وأبغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما » فلامانع من استعمال قد لايكون .

١٩ — حذر من — أنكر بعض النقاد تعدى حذر بمن وقال إن حذر المخفف متعد إلى واحد بنفسه تقول حذرت الشىء أى خفته فاذا شدد تعدى إلى مفعولين ومنه قوله تعالى ويحذركم الله نفسه أى عقابه وقول العرب حذرته الشىء ولم ترد فى المعاجم متعدية بمن إلا مع الأسماء ففى التاج وأنشد اللحيانى

حذار حذار من فوارس دارم أبا خالد من قبل أن تتندما

وفى القاموس (أنا حذيرك منه أى) محذرك منه (أحذركه) فالتاج عدى حذار ومحذر بمنه والقاموس عدى حذيرك بمنه وفى التفسير بالفعل عداه بنفسه وكل هذا دعا النقاد إلى أن يحذروا تعدى حذر بمن ولكن روى المرزبانى فى معجم الشعراء لفارس مشهور وشاعر محسن هو سهم بن حنظلة بن حلوان .

كم من عدو قد رمانى كاشح ونجوت من أمر أغر مشهر
وحذرت من أمر فمر بجانبى لم يبكنى ولقيت مالم أحذر

٢٠ — منضدة : تحدى بعض النقاد جمعاً من مدرسى اللغة العربية أن يأتوه بشاهد على صحة هذه الكلمة وشنع على تركها فى كراسات الطلاب من غير تصحيح وفى الحق أن الذى دون فى القاموس كلمة نضد بمعنى منضود فهى فعل بمعنى مفعول

كقنص ونفض بمعنى مقنوص ومنفوض أو بمعنى السرير يوضع عليه النضد ولكن القواعد التى أشار إليها علماء الصرف والنحو لا تأباها فقد روى صاحب الفضيلة الشيخ محمد الخضر حسين فى كتابه القياس فى اللغة العربية تحت عنوان مفعلة « وهذه الصيغة مما اختلف علماء العربية فى القياس عليها فمنهم من وقف عند حد السماع مع اعترافه بكثرة ماسمع منه وفى كتاب سيبويه ماهو ظاهر فى جواز القياس فقد قال فى حديثه عن هذا الباب « وليس فى كل شىء إلا أن تقيس شيئا وتعلم أن العرب لم تتكلم به » قال صاحب المحكم فى حكاية كلام سيبويه : يعنى لم تقل العرب فى كل شىء من هذا فان قست على ما تكلمت به العرب كان هذا لفظه » وممن صرح بصحة القياس فيه مظهر الدين صاحب شرح المفصل المسمى بالمكمل إذ قال : « اعلم أنهم إذا أرادوا أن يذكروا كثرة حصول شىء بمكان وضعوا لها مفعلة . وهذا قياس مطرد فى كل اسم ثلاثى كقولك أرض مسبعة أى يكثر فيها السباع »

هذا ماقالوه فى مفعلة التى تصاغ للكثرة أما التى للمكان من غير دلالة على الكثرة فالكلام فى ذى التاء كالتى للكثرة وأما مفعل فلا كلام فى قياسيته من كل فعل ثلاثى ولسنا بحاجة إلى إثبات منضد أو منضدة بالقياس مادام يزيد بن ضرار الذبيانى الملقب بمزرد أخى الشماخ وهو فارس مشهور وشاعر مفوه أدرك الاسلام فأسلم وكان هجاء خبيث اللسان ثم عدل عن الهجاء آخر حياته لقوله :

تبرأت من شتم الرجال بتوبة إلى الله منى لا ينادى وليدها

يقول فى قصيدة مطلعها

ألا يالقوم والسفاهة كاسمها أعائدتى من حب سلمى عوائدى

وفى آخرها يخاطب آل الوحيد وهم قوم من بنى كلاب :

وعهدى بكم تستنقعون مشافراً من المحض بالأضياف فوق المناضد

ولا داعى بعد هذا الاستبدال النضد بالمنضدة فكلاهما وارد صحيح ؟

علي السباعي

عيد النبي العربي

للأستاذ عمر الدسوقي

المدرس بدار العلوم

« ألقيت فى حفل أقيم بدار العلوم »

لبس الدهر تاجه العسجديا ... وبدا مشرقا طروبا رضيا
مزهر السعد فى مراح وبشر ... ينشد الكون لحنه العبقريا
ينفث السحر أغنيات عذابا ... ويصوغ الجمال شدوا طليا
يبعث الحور فى دلال وطهر ... يتراقصن فوق هام الثريا
قد عمرن السماء والأرض نورا ... وتخذن البهاء والحسن زيا
وسرى الطيب من شعور العذارى ... ينعش الروح والفؤاد الشجيا
ووفود من الملائك غنت ... فى ابتهاج غناءها الملكيا
فرنا النجم فى ابتسام وشوق ... وتبدى الوجود طلق المحيا
وتهادى الزمان تيها وعجبا ... قد حباه الإله يوما سريا
مهرجان قد نسقته الليالى ... لم ير الكون مثله مرئيا
هو عيد النبى أنعم بعيد ... تخذ الدهر من سناه الحليا

* * *

هبط الأرض كوكبا ألمعيا ... يحمل النور والفؤاد الأبيا
ينشر العدل يمنة ويسارا ... ويفيض الهدى نميرا شهيا
ضل من حوله الأنام وباتوا ... يعبدون الدمى ويبغون غيا
قدسوها فقبحوا من أناس ... غمطوا الله حقه السرمديا
قد أراقوا الدماء من غير جرم ... واشتروا بالتقى متاعا دنيا

وأدوا البنت ضلة فتوارت زهرة تنفح العبير الذكيا

* * *

كل من ذاق ذلة وهوانا يزدرى الناس حين يمسى غنيا
قبر العقل و نرى الجهل يطوى حلة الروح والحصافة طيا
لاترى المرء غير وحش أليف سكن الوحش هيكلا بشريا
وملوك تتوجوا بالمخازى وأذاقوا الأنام عيشا زريا
شيدوا المجد من عظام الضحايا وبنوا للفسوق صرحا عليا

* * *

ياعهود الظلام بالشر عودى قد عرجنا إلى السماء رقيا
فاصطفى الله للأنام نبيا أروع القلب سيدا عربيا
عف عن بهرج الحياة وغذى نفسه الحق منذ كان صبيا
لاذ بالغار من شرور وجهل ينشد النور بكرة وعشيا
جاءه الوحى فيصلا يتحدى شرعة الظلم والضلال الخفيا
جاءه الوحى منطقا سلسبيلا ينقذ الروح والفؤاد الشقيا
من عصير النجوم قد جاء سفرا ينضح النور والفتيق الشذيا
أرأيت الرضاب يجرى بيانا ونضيد الجمان معنى جليا
يعلن الحق والمساواة دينا ويرى العالم الطريق السويا
ينزع الشرك من قلوب مراض نبت الشرك فى ثراها قويا
حمل الحقد والجهالة شوكا وأتى اكله ضلالا وغيا
فتصدى لدعوة الخير قوم لم يزيدوا الضياء إلا مضيا
عبأوا الغدر والجهالة جيشا يشهر الجيش سيفه السمهريا
صبر الحق للسفاهة حينا ومشى ينشد النصير الفتيا
سمعت يثرب النداء فضمت فى حنان مجاهدا ونبيا
واستعدت لوقفة وكفاح فأتى النصر صادقا يثربيا
صرع الكفر فى القلوب وأضحى من أثار الوغى خليلا وفيا

يظفر الحق حين تحميه جند لا يبالون أى موت تهيا
من أراد الخلود عرسا نفيسا قدم الروح والعطاء السخيا

***

أى يوميك يا محمد أحلى يوم جاء الاسلام دينا رضيا ؟؟
سكب الخير فى قلوب غلاظ لا ترى بينها رشيدا تقيا
فاستحالت عصارة من حنان ترتدى النور والكمال حليا
أم غداة ابتغيت للعرب مجدا يذرع الارض والسماء رقيا
حندس البيد عاد يوما صبوحا ميت الذكر عاد بالعز حيا
سكن العرب فى الفيافى دهورا مادرى الناس أن بالبيد شيا
مالها اليوم ؟ كيف فاضت حياة كيف تهدى الورى ضياء سنيا
كيف هبت جحافلا وجيوشا تصرع الظلم حيث كان عتيا
تفتح الارض لا بسيف ورمح إنما الحق قد أتى لوذعيا
فغدا مسرح العروبة روضا ينبت العلم باسقا أريحيا
قد غذته حضارة الفرس فنما ورو ته منابع الروم ريا
ظل دهرا يجود عطرا وأريا ماله اليوم قد تناهى ذويا ؟؟
إنه البعث والنشور لشعب كان بالبيد خاملا منسيا

. .

أترانا نجدد العهد يوما ويرينا الزمان وجها نديا
نجمع الشمل ثم نخطو سراعا نرجع المجد والنعيم القصيا
آه لو تفهم العروبة معنى جاء من بعثك العظيم سريا
لغدا شأنها رفيعا جليلا يملأ الارض والسماء دويا

. .

يا نبيى أرى معانيك تأ بى أن يجول البيان فيها مليا
يبهر النور عينه فتراه خر فى حومة الفصاحة عيا
يبتلى الدوح بالطيور إذا ما ألفت الروض يانعا سندسيا
يصدح الطير فى الرياض ويشدو وأرانى أطيل فيك الرويا

عمر الدسوقى

فى الطريق ..

مسرحية ذات فصل واحد

للأستاذ خلف القاضى

المدرس بمدرسة فاروق الأول

تقدمة : كان اليوم الذى خرج فيه النبى مهاجرا إلى المدينة - نهاية لثلاثة عشر عاما ، من المحن الشداد ، احتملها النبى الكريم فى سبيل الدعوة إلى الحق ، معتصما بالصبر والايمان

فى ذلك اليوم الخائف استحالت مكة الظالمة ، جبلا من النار ، ونطاقا من السعير يسد عليه طريق النجاة والخلاص ، فكان يخطو فى طرقها على أرض تموج بالفتنة ، وتنتظره أرصاد المنايا فى كل مكان .

ثم انطلق محمد وصاحبه ودليله على عيون المشركين فى الطريق الموحش إلى يثرب دار الأمان . .

وكأن هؤلاء الناجين بدين الله لم يكادوا يدخلون فى غيب الطريق ، حتى انشقت الصحراء عن بيت منعزل ، ليس فيه غير امرأة نصف ، وشاة هزيلة . يتمثل فيهما بؤس البادية .

وفى ظلال هذه الخيمة ، وقعت القصة .

وكانت البركة ، وتمت المعجزة للرسول الأعظم .

إني راحل إليه !!.

المنظر : « في البادية ، خيمة ، فيها امرأة ، وشاة ، ومتاع »

رجل : « يقبل ، وعليه ملامح الصحراء ، ومعه عصا طويلة »

أم معبد : « تستقبله خارج الفناء »

أين غنمك يا أبا معبد ؟ !.

أبو معبد : خلفتها في المرعى ، يحرسها معبد .

أم معبد : ألا تخاف أن يأكله الذئب ؟

أبو معبد : لقد كبر معبد ، وأصبح فتى لايخاف الذئاب ، ولايخاف عليه .

أم معبد : « وقد ظهر على وجهها الحزن »

أراه بعيداً منا ؟ !.

أبو معبد : لاتحزني ! إن معه القوس والسهام ، وإني لانتظر نداءه لو أصابه مكروه ! . . .

ألا قليل من التمر ، يا أم معبد ؟ إن بي ظمأ وجوعا .

أم معبد « تبتسم ، وتدخل الخيمة ، وترفع غطاء الاناء المملوء باللبن »

أبو معبد : ياعجبا ! لبن ! . من أين لك هذا يا أم معبد ،والسنة جدباء،ولاحلوبة في الدار ؟ !.

أم معبد : لا والله . إنه مر بنا رجل مبارك ، وعلى يديه فاض هذا اللبن .

أبو معبد « في همس » ماأقل ماعبر بنا هنا رجل !!. حدثيني أكان وحده ؟ !.

أم معبد : بل كان معه رجلان : أما أحدهما فقصير القامة ، أسمر اللون ، وكان يمشي أمامه ، يرود الطريقَ .

أبو معبد : نعم ! نعم ! . إنه رائد هذه الطريق ، وإنى لأعرفه .

إنه هو عبيد الله بن أريقط ! .

أم معبد : وأما الثانى ، فكان أبيض اللون ، نحيفا ، غائر العينين ، ناتىء الجبهة ، معروق الوجه ، خفيف العارضين .

أبو معبد : « فى همس »

أبيض ، معروق الوجه ، خفيف العارضين . . . .

إنه هو صاحبه ورفيقه الذى رحل معه إنه .

أم معبد . نعم ! هو من تظن . إنه أبو بكر . فقد سمعت صاحبه يقول له : —

— وقد سألنى عن لحم قديد ، فلم يصب عندى — سلها يا أبا بكر عن التمر .

أبو معبد : أسفا ! فان الأزمة ، لم تترك لنا فضلا من الخير والحمد .

أم معبد : لا ! بل الخير كل الخير ، والبركة كل البركة ، جاءت مع الرجل الثالث .

أبو معبد : حدثينى . وكيف ؟ ! .

أم معبد : بعد أن عز القديد والتمر ، نظر هذا الرجل المبارك ، إلى الشاة ، التى خلفها الهزال عن الغنم ، وقال :

هل بها من لبن ؟ . قلت : هى أجهد من ذلك ! .

أبو معبد : ياليتها يا أم معبد ! . ياليت بها حلباً ! . . .

أم معبد : صبراً . فاستأذن منى أن يحلبها . قلت : بأبى وأمى أنت ! . نعم ! وإن رأيت بها من حلب فافعل ! .

أبو معبد : ومن أين ياأم معبد ؟ . ومن أين الدر والحلب ؟ .

أم معبد : فمسح ضرعها ، وقال : بسم الله الرحمن الرحيم ، ودعا بدعاء . لم أسمع مثله من قبل ! وددت لو سمعته ، ياأبا معبد ! ! . .

أبو معبد : وددت . ولكن أتمى حديثك ! .

أم معبد : فما هو إلا أن سمى . ومسح ضرعها ، ودعا ، حتى اجترت الشاة ، ودرت اللبن ، وكثر وسال على الأرض ، وطلب إناء كبيرا ، يكفى جماعة كثيرة ، وحلب ، وحلب ، حتى فاض الاناء من حافاته . .

أبو معبد : ياعجبا ! . ماذا تقولين يا امرأة ؟ ! .

أم معبد : وهل جربت على كذبا ؟ .

أبو معبد : وأيهم شرب قبل صاحبيه ؟ .

أم معبد : سقانى ، حتى رويت ، ثم سقى صاحبيه ، حتى رويا ، ثم شرب آخرنا، وقال : « ساقى القوم آخرهم »

أبو معبد : نعم السيد . ذلك الرجل ! .

« يلتفت مشيرا »

وهذا اللبن بقية الشراب ؟ .

أم معبد : وددت لو رأيت ! شربنا جميعا ، علا بعد نهل ، وحلب وشربنا ، ثم حلب ثالثا ، عودا على بدء ، حتى امتلأ الاناء ، وفاض ، وتركه لنا .

أبو معبد : ثم ماذا ؟ ! .

أم معبد : بعد أن رأيت ما رأيت ، بايعته على دينه ، وأمرنى بالصلاة ، وأسلمت وجهى لله رب العالمين ! .

أبو معبد : فديتك يا أم معبد ! هل لك أن تصفيه لى ؟ فقد اشتقت أن أراه .

أم معبد : رأيت رجلا ، ظاهر الوضاءة ، أبلج الوجه ، حسن الخلق ، لم تعبه ثجلة ، ولم تزر به صقلة ، وسيما قسيما .

• • •

فى عينيه دعج ، وفى أشفاره وطف ، وفى صوته صحل ، وفى عنقه سطع ، وفى لحيته كثاثة . أحور ، أكحل ، أزج ، أقرن .

• • •

إن صمت فعليه الوقار ، وإن تكلم سماه وعلاه البهاء ، فهو أجمل الناس ، وأبهاه من بعيد ، وأحسنه من قريب .

• • •

حلو المنطق ، فصل . لانزر ولا هذر ، كأن منطقه خرزات نظم يتحدرن ربعة .

لا تبغضه من طول ، ولا تقتحمه العين من قصر ، غصن بين غصنين ، فهو أنضر الثلاثة منظراً وأحسنهم قدا .

. . .

له رفقاء يحفون به . إن قال : أنصتوا لقوله ، وإن أمر تبادروا الى أمره . محفود محشود . لا عابس ولا مفند .

أبو معبد : هو والله صاحب قريش . إنه محمد الذى سمعنا بأمره فى مكة، وتجاوبت أنباءه الفلوات ! .

أم معبد : أكنت تعرفه من قبل يا أبا معبد ؟ . وهل أراك تؤمن به ، لو لقيته ؟ ! .

أبو معبد : ليتنى ! ليتنى يا أميمة ! . ولو رافقته لا لتمست . صحبته ! .

أم معبد : أوتها جرمعه . وتضرب فى شعاب الوادى ؟ .

أبو معبد : نعم ! وليتنى أدركه إن عدوت ! .

أم معبد : هيهات ! لقد غادر المكان ، وارتحل منذ بعيد ، وما أراه الآن ، إلا على الطريق ، لدى ثنيات الوداع .

أبو معبد : ليتنى وليتك يا أم معبد ! ياليت لى قدراً ، يقربنى إليه ، ويشرفنى بصحبته !

أم معبد : . . . . . . أهيىء الزاد للطريق ؟ .

أبو معبد : نعم ! وسأعد ناقتى للرحيل . !

وداعاً ، وداعاً يا أم معبد . إننى راحل إليه . ؟!

صوت : ثغاء حزين من داخل الخباء ، وعدو وراء الظاعن .

أم معبد : « تقف فى طريق الشاة ، وتحول » .

— سنار —